دار النيل والفرات للنشر والتوزيع

مسابقة شاعر / أديب النيل والفرات
الـــدورة الـثـانـيــة - مارس 2018
الكتاب الحائز على اللقب والمركز الأول
فرع الرواية

محمد البنا

أشجار لن تحترق

روايـــة

الطبعة الأولى أبريل - 2018

بطاقة الكتاب

عنوان المؤَلَّف : أشجار لن تحترق

المؤلِّف : محمد البنا

التصنيف : رواية

عدد الصفحات : 96 صفحة

رقم الإصدار الداخلي: 199

تاريخ الإصدار الداخلي: أبريل 2018 (الطبعة الأولى)



إطلالة جديدة .. ومبدع متفرد

مسابقة مفتوحة !! مُحررة من كل القيود ، لا تتقيد بفكر أو تَوَجُّه ما ، لا تتقيد بسن ، الهدف منها تقديم المبدعين الحقيقيين للساحة الأدبية – حلم طالما حلمنا به – وتحقق بفضل الله ، لما انطلقت الدورة الأولى لمسابقة شاعر النيل والفرات العربية فى أول سبتمبر 2017 فى كل أفرع الإبداع واليوم نواصل المسيرة بانطلاق الدورة الثانية مارس 2018 وفوز ثمانية وعشرين مبدعا بلقب شاعر / أديب النيل والفرات

تفخر وتتشرف دار النيل والفرات للنشر والتوزيع أن تفى بوعودها بطباعة وتقديم عشرة كتب للمكتبة العربية ، وهى الفائزة بالمركزين الأول والأول مكرر فى كل أفرع الإبداع ، نكاد نجزم أنها الأفضل على الإطلاق لشعراء وأدباء لهم رؤى ومنهج ، وبعد تقييم من لجنة تحكيم موقرة على مستوى عال فألف ألف مبروك للساحة الثقافية والمشهد الإبداعى هؤلاء النجوم أصحاب التاريخ والفكر الهادف الجاد

ناجى عبد المنعم

رئيس مجلس إدارة

دار النيل والفرات للنشر والتوزيع

الفصـــــل الأول

يقود سيارته الكاديلاك ذات اللون الأبيض موديل 46 مسرعاً على الطريق الزراعى، يسابق الشمس وهى تهبط مسرعة نحو الغروب، محاولاً بلوغ المدق الترابى المؤدى إلى عزبته قبل حلول الليل، وإلا اضطر مرغماً إلى السير ببطءٍ شديد، كبطةٍ عرجاء، ذلك لضعف بصره وإصابته بالعشى الليلى، وقد تجاوز الخامسة والستين من عمره .

توقف مضطراً عن مواصلة السير، حادثةٌ مرورية تعوق حركة المرور، بل جمدتها تماماً، فأوقف دوران محرك سيارته، وانتظر آملاً فى إنفراجها .

أخرج منديله ليسمح به حبات عرقٍ تتابعت كينابيع ماءٍ شق طريقه خلال مسام جبهته البيضاء .

كان ذا أصول تركية، هاجر أجداده الأوائل إلى مصر أبان الغزو العتمانى، ثم ما لبثوا أن استقروا بالريف المصرى، حيث الهدوء والطبيعة الخلابة .

حكى له أبوه مراراً وتكراراً قصة جده الأكبر شوكت الأول، وكيف كان مقرباً من محمد على باشا، وأنه هو من أهداها هذه العزبة، عندما قرر أن يستقر بمصر، ولا يعود إلى بلدته فى ربوع

الأناضول، حيث الطبيعة الخشنة، فأرسل فى طلب زوجته وأبنته وإبنه، ليقيما معه حيث طاب له المقام .

روى له أيضاً أن هذه العزبة، عندما استلمها جده، كانت أرضاً خلاء، وكيف كان جده يستميل المزراعين من القرى المجاورة، ليعاونوه فى فلاحتها، إلى أن استقر معه ثلاثة مزارعين، لازموه دوماً، فخصص لهم قطعة من الأرض نزلا ، فما كان منهم إلا أن استقدموا زوجاتهم وأبنائهم، فلم يعترض بل أضاف قطعة أخرى إلى الأرض التى سبق وخصصها لهم، وكانت أيضاً هبةً من هبات محمد على باشا

روى له أيضاً أنه أسماه شوكت تيمناً بإسم جده وجد جده، همهم مبتسماً لنفسه

" شوكت الثالث عشر " .

عبس وجهه مرةً أخرى، تناول منديله الأزرق ومسح ما ندىّ على جبينه وهمهم

" يبدوأنه لن يكون هناك شوكت الرابع عشر ".

مازال الطريق مسدوداً.

قفزت إلى ذاكرته ملامح امرأته وهى فى النزع الأخير، وبجوارها مولودتها تبكى .



إقبال هانم .. زوجته وكان يعشقها فلم يتزوج بعدها أبدا، وتكفلت أخته إعتماد هانم وزوجها بتربية وليدته الوحيدة فاطمة .

كانت فرحتهما بفاطمة أكبر بكثير من حزنهما لوفاة أمها، ولم لا وقد رزقهما الله بإبنة من حيث لم يحتسبا .

كان جودت أفندى عقيما، أحبته إعتماد وتزوجته، ولم يفت فى عضدها ولا ينتقص من مقدار حبها له، عدم قدرته على الإنجاب، فقد كان أملها فى رحمة الله أملاً كبيراً، وها هى رحمته تجلت عليهما فى فاطمة، نسباها إليه فحملت إسمه، وأحسنا تنشئتها ورعايتها إلى صارت عروسٌ فزوجاها .

كان شوكت كلما يزورها وقلما ما كان يزورها، تخاف منه وتلوذ محتميةً بحضن أبيها، فهى لم تعرف أباً غيره، ولا أماً غيرها، بل لا يعرف قصتها هذه، إلا من عاصروها من رجال ونساء عزبة شوكت .

فرت دمعتان من عينيه المجهدتين من الحر اللافح ومن القيادة، كان عائداً لتوه من آخر زيارةٍ لها .

- إزيك يا بنتى

-- أهلاً يا حاج شوكت

- عاملة إيه ؟ وأخبار جوزك إيه ؟...مبسوط فى وظيفته الجديدة ؟

-- الحمد لله ....إنت عديت على ماما وبابا قبل ما تيجى هنا ؟

ـ أه عديت ..وبيسلموا عليكى

-- هما ما جوش معاك ليه ؟ أصلهم وحشونى قوي، كمان العيال ما بيبطلوش زن، عايزين يشوفوا جدهم وجدتهم .

دخل عليهما إبنها رأفت بعد أن أنهى درسه الخصوصى، وأغلق الباب خلف مدرسته بعد أن غادرت .

-- تعالى يا رأفت سلم ع الحاج شوكت، ده يبقى أخو تيته إعتماد .

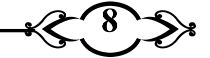
تقدم الصبى منهً وصافحه بحرارة، فأدناه الرجل منه وقبّله فى جبينه، فبادره الصبى متسائلا فى لهفة

= يااااه تيته وجدو وحشونى قوي .

هم الصبى بالجلوس إلا أن أمه انتهرته فى حدة قائلةً

= رأفت ..ياللا على أوضتك، وراجع دروسك، دقيتين وآجى أسمّع لك .

بمنديله المبتل بالعرق، مسح دموعاً انسابت على خديه فى غفلةٍ منه، مع بداية إنفراج الأزمة شيئاً فشيئا، أدار محرك سيارته، وبدأ فى التحرك البطئ، يتلمس طريقه وسط أضواءٍ مبهرة، وضجيجٍ يصم الآذان .



تنفس الصعداء وهو يدلف بسيارته إلى المدق الترابى، فهنا لا أضواء إلا أضواء مصابيح سيارته، ولا أصوات إلا صوت محركها مختلطاً بنقيق الضفادع المتصاعد من

جانبى الطريق .

استيقظت شمس الصباح مبكرةً كعادتها فى هذا الوقت من السنة، بينما استيقظ شوكت على دقات الجرس النحاسى المعلق عند الباب الخاجى لقصره الريفى الضخم .

دخلت أم السعد تحمل على رأسها صينية الإفطار، وضعتها فوق المنضدة كما اعتادت هى أو زوجها طيلةَ خمس سنواتٍ مضت، واظبت خلالها على إعداد الوجبات الثلاث لشوكت باشا دون إنقطاع، مدت يدها والتقطت دورق المياه الزجاجى الفارغ، واتجهت صوب المطبخ لتملأه بالمياه .

جلس شوكت يتناول طعامه، ثوانٍ مضت، وما لبثت أن عادت تحمل الدورق المملوء، وضعته أمامهٍ فوق المائدة، وقالت بصوتٍ هادئ

-- تؤمر بحاجة تانى يا سعادة الباشا ؟

همهم وهو يلوك الطعام فى فمه

- لا يا أم السعد ...تقدري تمشى .

انصرفت أم السعد وعيناه تتابعنها إلى أن توارت مغلقةً باب البهو خلفها .

تذكّر منذ ست سنواتٍ مضت، عندما جاءه هاشم يرجوه باكياً، أن يلحقه بالعمل لديه، بعد أن ضاقت به الدنيا بما رحبت .

تذكّر أنه لم ينتبه إلى هاشم ونحيبه وتوسلاته، وإنما كان جل اهتمامه منصباً على أم السعد وبناتها الثلاث .

كان البؤس يأكل من ملامحهن، وقد ارتدين الفقر ملبسا، لم يكونوا من أهل العزبة، ولا يمتون بأى صلة قرابة لأيٍ من فروعها الثلاثة .

فهم من بعض ما فهم، إنهم من إحدى قرى الصعيد، حيث يفرض الفقر سطوته، فلا زرعٌ ولا ماءٍ إلا فيما ندر .

تلقفتهم يد الدنيا ودارت بهم من مكانٍ إلى آخر، إلى أن وضعت رحالهم بين يديه .

كان هاشم نحيفاً شديد النحافة، خاشر القوى لا يصلح لعمل شىء .

هم شوكت بالرفض، إلا أن أنهار التوسل فى أعين أم السعد وبناتها منعته، وهاهى أم السعد تنصرف من أمامه كما رأها أول مرة، فلم تغير السنوات الست فيها شيئا يذكر، اللهم إلا ثلاثة أولاد رزقها الله بهم .

عهد إليه برعاية أحواض أشجار الموز والتى تحيط بالقصر من جميع جوانبه، كما سمح له ببناء بيتٍ ريفى صغير يأويه وزوجه وبناته، فى أحد أطراف المزرعة .

لم يكن شوكت باشا يستخدم خدماً، فمنذ وفاة زوجته اعتاد أن يخدم نفسه بنفسه، اللهم إلا وجباته الثلاث، كانت أم السعد تعدها له يومياً، ويتولى هاشم مهمة إحضارها له، أو تقوم هى بذلك إن تعذر لى زوجها لإنشغاله، كذلك كانت تغسل له ملابسه وتجففها وتكويها .

أعد فنجان قهوته الصباحي، وجلس كعادته اليومية يحتسيه فى التراس، وبجواره المذياع يؤنس وحدته، دون أن يستمع لكلمة مما تُذاع .

يتفحص بعينيه أشجار الموز وأوراقها الخضراء الطويلة، تخيلها أماً تحنو فى حنانٍ على أطفالها، لتحميهم من إشعة الشمس .

يبتسم ويهمهم لنفسه

" ولكن الأطفال لم يأتوا بعد، فثمار الموز لم تظهر بشائرها، فأوان ظهورها لم يحن بعد "

يقتحم هاشم وأبنتيه مجال رؤيته، يتوغلون بين الأشجار إلى أن يتواروا خلف أوراقها الكثيفة، فيعود شوكت إلى تأمله للأوراق العريضة .

يدقق النظر فى ساعة يده، تجاوزت الرابعة بقليل، تأخذ الدهشة مكانها فى تقاطيع وجهه الأبيض، فلم يحدث طيلة سنوات أن تأخروا فى الإتيان بطعام الغداء إلى هذا الحد .

رنين الجرس الخارجى يتصاعد، بعد برهة تدخل هنية حاملةً صينية الطعام فوق رأسها، تقف على مقربةٍ منه مشدوهة وفى عينيها تساؤل، فيشير لها بأن تضعها فوق المائدة، تضعها وتهم بالإنصراف، إلا أنه يمسك بيدها قائلاً

-- إنتى مين فيهم يا حلوة ؟

ترد وقد تورد خدها خجلا

- آنى هنية يا سعادة الباشا

تهم بالإنصراف إلا أنه يحكم قبضته على ذراعها

-- إنتى الكبيرة يا هنية ؟

- أيوه يا سعادة الباشا

-- عندك كام سنة يا هنيهة ؟

تجيبه وقد أطرقت ناظريها إلى الأرض

- سبعتاشر يا سعادة الباشا

يترك ذراعها بلطف، ويناولها دورق المياه لتملأه، تستدير وتبتعد بضع خطوات، تتوقف فجأة، تلتفت برأسها ناحيته، تساله عيناها، فيشير لها بأطراف أصابعه إلى الجهة اليسرى ، تواصل سيرها .

وضعت الدورق الزجاجى أمامه، وهمت بالإنصراف إلا أنه استوقفها مرةً أخرى متسائلاً .

-- أبوكى وأمك ماجابوش الصينية ليه يا هنية ؟

ترد فى عقوية وأسنحياء

- آبا فى حوض الموز، وأمى بتغسل الهدوم، وقالت لى أجيب الصينية حدا سعادتك

-- طب يا هنيهة تقدرى تمشى

تنصرف من أمامه فى خطىٍ مسرعة صوب الباب، وفى ذهنها العديد من الأسئلة، فلم تكن مرتاحةً لنظرات عينيه المتفحصة .

ينتظر هبوط الظلام وقد فرغ صبره، فبين دقيقةٍ وأخرى يتطلع إلى الفضاء الخارجى عبر زجاج نافذة غرفته، داعياً الوقت أن يمضى مسرعا .

تصفح ألبوم صوره مراتٍ ومرات، احتسى العديد من فناجين البن التركى

كان يتعجل الوقت ترقباً لمجئ هاشم حاملاً صينية العشاء، لم يكن جائعاً، وإنما قد عزم أمره واتخذ قراره، فلم يعد هناك وقتاً يضيعه، بعد كل ما أضاعه من سنى عمره .

تحدث إلى زوجته، روى لها والدموع تترقرق فى مآقيه، ما حدث من إبنتهما الوحيدة، وكيف أنكرته أمام حفيده .

كيف رفضت بإصرار وتكبر ، أن تستعيد نسبها لهما .

بكى حين روى ، كيف بصقت كلماتها فى وجهه

" أنت لم تكن يوماً أباً لى ، ولن تكون "

روى لها كيف طردته من منزلها، حينما نهضت فجأة وقالت فى هدوء لا يخلو من حدةٍ وجديةٍ جلية

" مضطرة أقوم دلوقتى ، دروس إبنى وده وقت مراجعتى معاه "

ومضت فى خطيٍ ثابتة صوب باب شقتها، فتحته وانتظرت مغادرته .

روى لها كيف احتبس أنهاراً من دموعه، وهو يغادر منزلها

استأذنها ووافقت، بل ابتسمت له مُرحبة .

رنين الجرس يتصاعد، ألقى بصورة زوجته فوق فراشه، واندفع مهرولاً إلى



البهو الكبير، هنيهة ودخل هاشم حاملاً صينية الطعام، وضعها فوق المائدة وهم بالإنصراف، إلا أن شوكت باشا استوقفه قائلاً

-- أقعد يا هاشم

جلس هاشم مفترشاً الأرض على مقربةٍ من قدمى الباشا الجالس على مقعده المميز عن باقى المقاعد .

-- قوم وأقعد على كرسى يا هاشم

- ما ينفعشى يا سعادة الباشا ، الميه ماتجريش ف العالى ، أنا خدام سعادتك ، مكانى

تحت رجلين سعادتك ياباشا

--قوم يا هاشم ، اسمع الكلام ، وتعالى هنا جنبى

تردد هاشم كثيراً قبل أن ينهض ويتخذ مجلساً له على أحد المقاعد القريبة منه ، وفرائصه ترتعد ، فقد أيقن أن الخطب جلل .

بمجرد أن دخل بيته ، انتحى بأم السعد جانباً

-- سعادة الباشا هيدينى القيراطين اللى داير البيت بيع وشرا

أبدت المرأة دهشتها واستغرابها

- بيع وشرا إزاى يا هاشم ؟...هو أحنا حيلتنا اللضىِ يا أبو حسين ، قول كلام يخش العقل يا راجل

-- وكتاب الله زى ما با أقول لك يا وليّه

- إزاى يعنى ؟

-- بكره هيجيب الباشكاتب لجل ما يكتب العقد ، وبعدها بيومين هنكتب العقد التانى

- عقد تانى !!....عقد تانى ليه ؟ ....وحياة سيدى أبو العزايم ما فاهمه حاجة .

صمت الرجل فجأة ، أطال النظر فى عينيها المتسائلتين ، ثم ما لبث أن دنا منها هامسا ً وبهدوء ، كمن استسلم لقدرٍ واقع لا محالة .

-- كتب كتابه على هنية .

صكت المرأة صدرها بيدها ، صرخت مستنكرة ، إلا أنه كمم فمها بكفه ، فمنعها من إتمام صرختها .

-- إسكتى يا وليّه وإهدىِ

أماطت كفه عن فمها ، همست متسائلة

- وإنت ؟...إنت وافقت يا هاشم ؟



نخ الرجل جالسا القرفصاء حيث كان يقف ، واضعاً رأسه بين راحتيه

-- وافقت ؟....طبعاً وافقت ، يعنى كنتة عايزانى أقول للباشا لأ ؟

- يا نهار مش فايت !!...ده أكبر منها يجى بخمسين سنة

-- مقدرشى ....مقدرشى أقول له ...مقدرشى يا وليّه ...مانتى عارفه أحنا فين وهو فين ، ده سعادة الباشا يا أم السعد ....عارفه يعنى إيه سعادة الباشا .

جلست أم السعد بجواره شبه منهارة ، وقد أُسقط فى يدها ، وبدت على ملامحها علامات اليأس والإحباط ، فاستسلمت لما لا قدرة لديهما لدفعه عنهم

- والعمل ؟

قاطعها هاشم مهمهماً

-- العمل عمل ربنا

ثم التفت إليها مهوناً وقع المصيبة عليها

-- ومقام سيدى أبو العزايم ، لو كنتى شفتيه ساعتها يابت ، لكان صعب عليكى ، تخيلى كده ، سعادة الباشا الكبير بهيبته وعظمته بيترجانى ، وكتاب الله يا أم السعد كان ناقص يحب على إيدى والدموع بتسح من عنيه ، وهو بيقول لى

" يا هاشم يا أبنى ...انا مقطوع من شجرة ، لا ليّا وارث ولا وريثة ، بعد موتى مين هيراعى العزبة ، يا هاشم أنا نفسى ف عيّل من صلبى يورثنى من بعدى ".

التفتت إليه أم السعد قائلة

- بس أهل العزبة بيقولوا إن عنده بنت كبيرة ف مصر، عايشه مع عمتها

-- أه...ماهو حكى لى عنها وقال لى بعضمة لسانه

" صحيح أنا عندى بنت من صلبى ، لكن ما تنفعشى تورثنى ، لإنها من يوم ولادتها وأختى وجوزها خدوها بعد أمها الله يرحمها ما ماتت ، ونسبوها ليهم ، يعنى رسمى مهياش بنتى "

تنفست الصعداء ، وبدت كمن ارتضى بما هو قادم ، ثم التفتت إليه قائلة

- طب وهنية ؟

-- مالها هنية يا أم هنية ؟!

- هنوافق ؟

نهض الرجل واقفاً فى شموخ



-- من إمتى والبنات ليها كلمة يا أم السعد !!...هو أنا رحت فين ! ، الكلمة كلمتى والشورى شورتى يا وليّه .

أيقنت إبنة السابعة عشر ربيعًا من صدق مخاوفها من نظراته المتفحصة ، عندما رأها لأول مرة ، أدركت الآن ما كان يدور بخلده .

لم تبد إعتراضًا ، فقد كانت تعلم جيدًا ، أنه لم يكن فى مقدورها أن تعترض ، ولمَ تعترض؟ ، فبزواجها من هذا الكهل ، ستصبح بين ليلةٍ وضحاها ، الملكة المتوجة على عرشِ عزبة شوكت باشا ، ولن يجرؤ كائنًا من كان على النظر إليها إبنةً لأجيرٍ مسكينٍ ، لا عزوةٌ له ولا مال .

توافقت كلمات أمها لها ، مع ما دار بذهنها حين فاتحتها برغبة سعادةالباشا فى الزواج منها ، فبهذه الزيجة إن تمت ، سيكون لأخواتها مستقبلاً مشرقًا ، بعد أن كاد أن لا يكون لهم غدٍ مأمول ، كانت تراه دائمًا ماثلاً أمام عينيها ، حينما كانت تراقب أبيها ، وهو يمضى نهاره بين أشجار الموز

يقلمها ويرعاها ، ولطالما مثل أمام عينيها أخوتها الصغار أجراء فى مزرعة الموز ، لا يفارقونها ولا تفارقهم .

لم تكن ليلة العرس كمثيلاتها فى الريف المصرى ذو التقاليد الراسخة ، فلا طبل ولا زمر ولا دفوف .

إقتصرت الليلة المقامة فى البهو الكبير ، إقتصرت على المأذون الشرعى للزمام ، وعلى كبراء عزبة شوكت الثلاثة ، الحاج

عوضين ناظر العزبة ، والحاج عويس والحاج حسنين كبيرى العائلتين الأخريين .

كانوا يقاربونها سناً ، لذا كان الحسد ينضح من عيونهم ، على ما يجرى ويتم تحت أبصارهم ولا يملكون له دفعا ، وليس بيدهم إلا مباركته على زواجه .

حسدوا الباشا على عروسه ، إلا أن حقدهم كان أكبر على هاشم ، ذلك الأجير الذى لا يعلمون له نسبًا ولا أصلا ، وقد أمسى صهرًا للباشا الكبير ، حسدوه على النعيم المنتظر ، ورغد العيش بعد جوع ، فها هو الرجل يرتدى عباءةً مطرزة ، لم يكن أحدهم يجرؤ بإرتدائها ، وها هن بناته يرتدين أفخم الثياب ، والتى خيطت لهن خصيصًا فى البندر ، حتى الصبية الصغار ، استقدم لهم الباشا ترزياً خاصاً خاط لهم ملابسهم .

أما أم السعد فتلك حكايةٌ أخرى ، فقد كادوا أنٍ لا يتعرفوا عليها ، كان زيّها على بساطته غايةً فى الإناقة ، بدت قمةً

فى الجمال والرشاقة .

حاول وفشل ، ثلاث ليالٍ متتالية والفشل يلازمه ، تفهمت وصبرت ، فلم يشغلها الأمر كثيرا ، إلا أنه كان مقلقًا لأمها ، تأتى إليها كل صباح ، تسألها فتأتيها الإجابة محبطة ، تستفسر منها عن أدق التفاصيل ، وهنية تطمئنها ، وتعزو فشله إلى إحساسه بفارق السن بينهما ، بينما أمها تبدى إمتعاضها ، وقد عزت سبب فشله إلى أنه من المؤكد " مربوط " ، ولا بد من البحث عمن يحل له عقدة السحر التى أدت إلى ربطه .

لم تجد أم السعد بدًا من إطلاع زوجها هاشم على مشكلة إبنتها العروس ، علّه يجد حلاً .

أشارت عليه وأقترحت أن يتولى إقناع سعادة الباشا باللجوء إلى الطريقة الريفية المصرية للدخول بزوجته العروس ، وفقاً للتقاليد المروثة جيلاً بعد جيل .

تلاشى القلق وحل محله فرحةٌ غامرة ، وهى ترى المنديل الأبيض الملوث بدم بكارة إبنتها ، فتنطلق من بين شفتيها زغرودةٌ طويلة ، وتتبعها بأخرٍ متقطعات .

الآن آن لقلقها أن يبتعد ، ويهدأ قلبها ويستريح من همٍ أثقله .

عامان مرا ، هنية تعانى فى صمت ، بينما أمها وأنيها

يتعجلون حملها ، ومجئ الوريث المنتظر .

الرجل يبذل قصارى جهده فيما لا حيلة له فيه ، والزوجة الشابة تتحمل وتصبر ، وتكتم سر فشله حتى عن أقرب الناس إليها ، أمها وأبيها .

كانت راوية هى خزانة أسرارها ، تبوح لها بمعاناتها ، فتجد عندها السلوى والتعاطف .

خلال العامين المنصرمين ، إنقلبت الأحوال ، هاشم الأجير المعدم أصبح ناظراً للعزبة كلها ، مما أثار حنق وبغض كبراء

عائلاتها الثلاثة ، فقد جرى العرف طيلة مائتى عامٍ ونيف ، أن يتولوا النظارة بالتناوب فيما بينهم .

الأيام تمضى مسرعة ، بينما حنقهم يتضخم جنيناً فى أحشائهم ، دون أن يلوح فى الأفق المنظور له مخاضا ، فلا قدرة لهم على مواجهة الباشا الكبير ، وكيف يواجهونه ، وهو ولي نعمتهم ، وأبوه ولي نعمة آبائهم .

بذل هاشم جهدًا يفوق طاقته ، فلم يقصر فيما أوكله الباشا له وكلّفه به من مهام ، بل أن الباشا أمر كبراءها بمعاونته ومساندته ، وبدورهم لم يقصروا في تنفيذ ما أمرهم به الباشا ، فهم وإن كانوا كبراء عائلاتهم ، فلا زالوا أجراء يفلحون أرض سعادته .

كان للمجهود الشاق الذى بذله هاشم تداعياته ، فتدهورت صحته .

هنية تجاهد لتتأقلم مع ما وضعه القدر فى طريقها ، إرتضت ضاغرة ، ووجدت سلواها فى البوح لأختها راوية ، وفى خلوتها الليلية بين أشجار الموز .

إستأذنت زوجها فى منحها ساعتين كل ليلة مابين الثامنة والعاشرة تخلو مع نفسها ، وله ما تبقى من ساعات يومها .

وافقها ، لم يكن مرتاحاً فى أول الأمر ، راقبها خلسةً وتابعها مراتٍ ومرات ، إلى أن اطمأن قلبه فكف عن مراقبتها .



لم يلحظ على سلوكها ما يثير ريبته ، فلم ير سوى صلواتٍ تقيمها وأدعيةٍ تبتهل بها .

كانت هنية تمضى وقت خلوتها فى التأمل والتفكر فيما كانوا فيه وما آلوا إليه ، والقلق على ما ينتظرهم فى قادم الأيام ، وقد تأخر حملها .

الفصـــــل الثـــــاني

راوية تهرول بين أشجار الموز ، وأشعة الشمس تضع رحالها فوق رأسها العارى بين لحظةٍ وأخرى ، الدموع تنساب على خديها المتوردين ، وطرحتها السوداء تنزلق من على كتفيها ، تنحنى وتلقتطها ، وتواصل عدوها صوب القصر .

تلتقط أنفاسها اللاهثة ، تدق الجرس النحاسى بعنف ، تفزع هنية من نومها ، تقفز من فراشها وهى تلهج " اللهم أجعله خير ".

الباشا يضع فنجان قهوته أمامه فوق المائدة ، ينهض متطلعاً إلى الباب الخارجى لقصره ، يرى راوية تندفع إلى الممشى الواصل بين الباب الخارجى للقصر والباب الرئيس للبهو الكبير ، حاسرة الرأس ، تلطم خديها.

هنية تقفز السلالم الداخلية فى طريقها إلى أسفل ، الباشا يقطع المسافة ما بين الشرفة وباب البهو فى خطىٍ سريعة

التقوا ثلاثتهم عند مدخل البهو .

- فيه إيه ياراوية ؟...إنطقى يا بت ..فيه إيه ؟

الباشا يتراجع خطوتين إلى الوراء ، فقد أدرك ماهية الحدث الجلل ، بينما راوية تلتقط أنفاسها بصعوبة ، والدموع تنهمر من عينيها المتورمتين

-- أبوكى !...أبوكى يا هنية

تقاطعها هنية فى هلع وكفيها يطبقان على كتف أختها

- أبويا ؟....آبا ماله يا راوية ؟...آبا ماله ؟

-- أبوكى....أبوكى مات يا هنية

تنهار هنية مغشيًا عليها ، فيسارعان بحملها ، و يضعانها لى الأريكة .

أقيمت صلاة الجنازة فى الجامع الكبير الذى يتوسط العزبة ، بعد الصلاة خرجوا مشيعين جثمانه ، يتقدمهم سعادة الباشا ومن خلفه كبراء عائلاتها .

بلغوا مدافن القرية فى الطرف الآخر ، مجتازين الطرف الغربى من أحواض الموز ، مارين بالجهة الشمالية من القصر ، حيث كانت هنية وراوية ورئيفة يقفون فى النافذة المشرعة ومن خلفهن أمهم يتابعن سير الجنازة ، وملقين

النظرة الأخيرة على أبيهم ، والدموع تقطر من أعينهن .

الباشا يقف على مقربةٍ من القبر بعد أن تمت مراسم الدفن ، يتلقى العزاء من المعزين وبجواره حسين الأبن الأكبر للفقيد ، والبالغ من العمر سبعة أعوام .

لم يتخلف أحد من أهالى العزبة عن تقديم واجب العزاء ، بينما اجتمع نساؤها فى البهو الكبير وحديقة القصر معزين أم السعد وبناتها الثلاث ، وبالأخص الست هنية ، ولم لا ؟ ، وهى زوجة الباشا الكبير .

هذا الصباح أشرقت الشمس مبكرةً كعادتها ، لكنها بدت أكثر حنوًا على رعاياها ، تنير ولا تحرق ، تتوسط الجهة الشرقية من سماءٍ صافية ، لا يشوب نقاءها بقعةٌ من سحاب .

شوكت باشا جالسٌ فى شرفته ، يحتسى قهوته الصباحية ، ذهنه حائر ، إلى من سيوكل نظارة أراضيه الزراعية ، يعلم جيدًا أنه وفقاً للتقاليد التى أسسها أجداده ، فإن النظارة تكون للحاج عوضين ، فهو من كان يتولاها قبل نزعها منه قصرًا ، وتكليف المرحوم هاشم بنظارتها ، لكنه لا يميل له بعدما لاحظ إمتعاض وجهه ، حينما نزعها منه ، وأوكل أمرها لصهره ، كما أن كبيرى العائلتين الأخريين ، لمحا له عندما جاءا مهنئين بقراره السديد ، لمحا له بحزن الحاج عوضين ، الذى جاء مهنئاً بعدهما بثلاثة أيام ، ومعتذرًا عن تخلفه ،

- سرحان ف إيه ياباشا ؟

فوجئ بهنية تقف على رأسه ، وتتطلع إليه فى دهشة ، ثم تتخذ مجلسها على المقعد المجاور

-- ولا حاجة يا هنية ..

صمت للحظات ثم ايتطرد

-- بافكر ف الناظار الجديد ...بعد أبوكى الله يرحمه

- الحاج عوضين ؟

-- أه ....عوضين

قالها وأتبعها بتنهيدة أسى

- ومتضايق ليه ياباشا ؟....إيه اللى مزعلك ؟

التفت إليها ، تردد قليلاً قبل أن يرد

-- بافكر آديها للحاج عويس أو الحاج حسنين

ربتت على فخذه وقالت معاتبة

- لا ياباشا ...ما تحيدشى عن الحق ، أنا رأيى ترجعها للحاج عوضين

سكتت وعيناها يرصدان رد فعله

- عموماً ..أنت حر يا باشا ...إعمل اللى يريّحك

صمتت وتطلعت إلى أشجار الموز المترامية فى مرمى بصرها ، ثم استطردت

- عايزه أكلمك ف موضوع كده ...بس خجلانه

إلتفت إليها مندهشاً

-- موضوع إيه يا هنية ؟

- أمى وإخواتى يا باشا

-- مالهم ؟؟

- بعد آبا هاشم ما مات، بقم عايشين لوحدهم وما معاهمشى راجل يراعيهم، راوية ورئيفة كبروا، والبيت ف حتة مقطوعة، وآنى قلقانه عليهم

-- عايزانى أبنى ليهم بيت قريب م القصر يعنى ؟

قاطعته متلهفة، وقد اشتمت رياح الموافقة

- وتبنى ليه ؟ ..ما القصر كبير ، واهم يبقوا ونس لينا

-- ماشى يا هنية ...من عينيا ، لو عايزاهم من دلوقتى مفيش مانع

انحنت هنية تقبّل يده شاكرة ، فسحب يده بسرعة ، وتمتم

- أنا مبقاش ليا غيركم يا هنية .

واظبت هنية على خلوتها اليومية ، وواظبت أم السعد على

إعداد الطعام ، وواظبت راوية وأختها رئيفة على تنظيف القصر .

تكفلت أم هنية بإعداد فنجان القهوة الصباحى لشوكت باشا ، كما إضطلعت بمؤانسته حينما يخلو لنفسه ، كانت تستأذنه فى إعداد فنجان قهوته التركية ، وتجئ به وتضعه أمامه فوق الطاولة ، وتجلس عند قدميه .

ذات ليلة فاجأها قائلاً

- قومى يا أم السعد وأقعدى ع الكرسى

صكت صدرها بكلتا يديها

-- يا عيب الشوم ...ما يصحش يا باشا...ما ينفعشى ...وحياة سيدى أبو العزايم ما ينفع ..آنى ؟

انا مكانى هنا يا سعادة الباشا....خدامتك وتحت رجليك

مد يده وأمسك ذراعها بلطف جاذباً أياها إلى أعلى لتنهض ، سرت قشعريرة فى جسده المنهك ، فقد كانت أول مرةٍ يلمس جسدها ، وإن كان جلبابها حائلاً بين جلد يده وجلد ذراعها البض .



وقفت لكنها أبت الجلوس ، فأقعدها على المقعد عنوةً

- أقعدى يا أم السعد....أقعدى ...عندى كلام كتير عايز أكلمك فيه

-- خير ياباشا...اللهم أجعله خير

تنهد فى أسى وقال همساً

- فيه سر عايز أئتمنك عليه

-- ف بير يا باشا ....سرك ف بير

دنا برأسه منها وقال بصوتٍ خفيض

- إسمعينى كويس يا أم هنية ، اللى هأقوله ليكى دلوقتى ، محدش ف الدنيا يعرفه غيرى وأنتى والدكتور .

-- دكتور ؟ ....دكتور ليه يا باشا ؟

- أنا يا ام السعد مريض ....مريض بالمرض البطال .

-- ربنا يشفيك ياباشا ...قادر على كل شيء....بس إنت دوام ع الدوا

- أفهمينى كويس يا أم السعد ...بأقول لك المرض البطال ، ده مفيش منه شفا يا أم هنية ، مفيش منه شفا غير بالموت .

صكت صدرها مرةً أخرى

-- الشر بره وبعيد ...الشر بره وبعيد...بعد الشر عليك يا سعادة الباشا ، إنشالله آنا

صمتت للحظات كمن تتذكر شيئًا غاب عن بالها

-- أنا أول م النهار يشقشق هأدعى لك بستنا نفيسة وستنا زينب وسيدى أبو العزايم كمان ، وإن شاء الله ربنا هيشفيك ببركتهم ، أسيادنا دول غاليين عنده قوى ..قوى يا باشا .

ربت بيده على كتفها ، فتصيبه القشعريرة مرةً ثانية ، وتشعر هى أيضاً بدف ملمس أصابعه ، تتطلع إلى عينيه ، فتغض طرفها خجلا .

هنية تجتاز فى روية الباب الجانبى الفاصل بين القصر وأحواض الموز ، تصعد فى بطء السلالم المؤدية إلى شرفة البهو ، حيث يجلس الباشا وتجلس أمها ، تتطلع إليهما وقد إعترت ملامحها الدهشة ، تبتسم ، أمها تنهض فجأة وتهم بالجلوس أرضاً ، إلا أن هنية تمسك بكتفها ، وتعيدها إلى حيث كانت جالسة ، والإبتسامة على شفتيها إزداد لمعانها

--- والله مانتى قايمة يا أمه...إنتى عايزه تزعلى الباشا مننا ؟

تصمت لثوان ، ثم تستطرد قائلة

--- آنى طالعة أنام .

إستدارت منصرفة ، وبعد بضع خطوات ، توقفت وألتفتت إليهما قائلة وهى تضحك

--- والله لايقين لبعض

ثم واصلت سيرها مبتعدة ، تجتاز البهو ، وتصعد السلالم الثماني عشرة المؤدية إلى غرفتها .

تركتهما غارقين فى خجلهما ، لا يدريان ما يقولانه تعليقاً على ما غمزت به هنية .

يمرض الباشا ويلازم الفراش ، يتكالب الجميع على خدمته ورعايته ، خاصةً أم السعد التى لم تألو جهداً ، ولم تدخر وقتاً إلا أفنته فى رعايته ، كان قلقها على حالته الصحية كبيراً ، وقلقها ورعبها أعظم ، خوفاً من سماءٍ سوداء تظلهم إن مات الباشا ، وإبنتها لم تحمل بعد .

كانت أحرص على حياته من نفسه ، وكان هو أيضاً يدعو الله ألا يقبض روحه قبل أن يرزقه بخلفٍ يورثه ويرعى أملاك أجداده العظام .

ما أكثر ما بكى حتى تورمت عيناه ، لم يكن يأبه لوجعه الجسدى قدر ألمه النفسى ، وهو يرى نفسه بلا حيلة ولا قدرة ، وهو الآمر الناهى فى زمام سطوته ومنطقة نفوذه .

كان يرى ويسمع ويدرك أيضاً إهتمام أم السعد به وحرصها عليه وتفانيها فى خدمته ورعايته .

لمح فى عينيها رغبتها فى البقاء بجانبه طوال الوقت ، دقيقة بدقيقة وساعة بساعة ، بينما كانت هنية تواظب على خلوتها المسائية ، كانت أم السعد تجلس على أرضية الغرفة بجوار فراشه ، تطعمه وتناوله دوائه .

لم يقلقها مرض زوجها ، وكيف تقلق وهى لا تعرف حقيقة مرضه ، وكيف تقلق عليه وأمها تتفانى فى رعايته والسهر عليه ، فلمَ إذن تحرم نفسها من متعتها الوحيدة بالجلوس بين أشجار الموز .

طرأ على ذهنها سؤال ، لم يدر بخلدها من قبل .

" ماذا لو مات الباشا الآن ؟ ".

إرتعبت عندما بدأت تتشكل فى ذهنها ملامح إجابته ، هى لم تنجب بعد ، وكيف تنجب وهى لم تحمل بعد ؟ ، وكيف تحمل وزوجها لم يكمل مرة ...مرة واحدة ما بدأه ؟ ، ينفرط عقد تأملاتها ، عندما ينساب فى أذنيها نغمات ناي تتصاعد ، ترهف السمع ، تتبينه ، تحمله نسمات الهواء من الجهة الغربية ، تتبع النغمات فى صمت ، تتسلل خفيةً بين أشجار الموز ، تبلغ الطرف الغربى لأحواض الموز ، تلمحه جالساً على الحافة الأخرى من المجرى المائى الضيق ، الذى يفصل بين مزرعة الموز والأراضى الزراعية المملوكة لشوكت باشا

، تتخذ مجلسها خلف شجرة موز ضخمة ، متخفيةً خلف جذعها وأجنحة الليل المظلم .



تحلق بها النغمات المنسابة فى رقة ، لتسبح بها فى فضاءات السماء ، وتطوف بها بين النجوم اللامعة .

مضت الدقائق سراعاً ، توقف العزف ، وعلا نقيق الضفادع وصراصير الليل ، لمحته ينهض ويمضى تحت جنح الظلام ، صوب منازل العزبة .

عادت ولا تدرى كيف عادت ، بقايا النغم مازال عالقاً فى سمعها ، وتتناغم معها دقات قلبها .

قادتها قدماها بلا وعى منها إلى الباب الجانبى ، صعدت السلالم مغمضة العينين ، فما زالت تحلق فى السماء وتطوف بين الكواكب .

توقفت أمام باب غرفة نومها ، أمها جالسةٌ على أرضية الغرفة ، مستندةٌ بذراعها الأيسر على حافة الفراش ، نائمةٌ ورأسها يستند على ذراعها ، تأملتها فى حنان ، دخلت فى هدوء ، غطتها بملاءةٍ بيضاء خفيفة ، ثم أنسحبت فى هدوء إلى غرفة أختيها .

أشرقت الشمس على مزارعى عزبة شوكت ، وهم منهمكون فى فلاحة الأرض ، يتابعون بشوق نمو أعواد الذرة ، التى

تجاوزت قاماتهم طولاً ، متطلعون فى لهفٍ إلى ميعاد حصادها

بينما هنية تتطلع بلهفةٍ وشوق إلى غروبها ، وانسحابها من أزقة السماء ، كي ما تعطي الفرصة لليلٍ ، تتمناه أن يأتي .

كانت النجوم تتسابق لإحتلال أماكنها فى ساحة السماء الزرقاء ، وهنية تُسابق خطاها مخترقةً أشجار الموز الكثيفة ، فى طريقها إلى الطرف الغربى منها ، وكلها شوقٌ يتطلع لسماع نغماتٍ ، ما برحت أذنيها منذ استمعت لها البارحة.

جلست ، انتظرت ، طال انتظارها ، لا تلتقط مسامعها إلا نقيق الضفادع وأصوات صراصير الليل ، أما نغمات الناي ...فلا نغمات .

تجاوزت الساعة منتصف الليل ، والنغمات لم تتصاعد بعد ، يأست ، عادت تجر قدميها ، وخيبة أمل معلقةً بذيل ثوبها ، مزاحمةً ذرات التراب التى علقت به .

ما أشبه الليلة بالبارحة ، أمها تنام جالسةً على أرضية الغرفة ، وزوجها نائمٌ فى فراشه ، فعاودت أدراجها إلى حيث تنام أختيها .

لم يعرف النعاس طريقاً إلى عينيها ، وآنى لها أن تنام ؟ ، والأنغام عادت لتضرب بقوةٍ وعنف أذنيها ، وطيفه وهو يمضى فى الظلام ماثلاً فى مخيلتها ، يأبى أن يغادر مقلتيها .

فاجأتها أختها راوية قائلة

- خير يا هنية ؟...إتأخرتى قوى يا ختى ...قلقت عليكى

ردت هنية والكلمات تتحشرج فى حلقها

-- مفيش يا راوية ....مفيش

إعتدلت راوية جالسةً فى فراشها ، وعيناها تتفحصان أختها فى حيرةٍ من أمرها ، لما اعترى صوتها من أسى ، همت أن تواصل الحديث لكنها أحجمت .

التفتت هنية لها وسألتها

-- أخبار الباشا إيه؟

أنفرجت أسارير راوية ، فقد جاءتها الفرصة لإستكمال الحديث ، علّها تتطلع على شيءٍ مما يضيق به صدر أختها

- بخير يا ختى بخير ، كل يوم بيعدى أحسن م اللى قبله ، وأمك ما بتسيبوش لحظة .

-- فيها الخير ...ما احنا ملناش غيرها دلوقتى .

صمتت إلا إن راوية لم تصمت

- وإنتى يا هنية ...مالك يا ختى ؟

ردت هنية منهيةً الحديث ، وهى تشيح بوجهها للناحية الأخرى

-- بعدين ياراوية بعدين يا ختى....نامى دلوقتى ...تصبحى على خير .

مرت ليالٍ على هنية كئيبة وثقيلة كما سبقتها من ليال ، تذهب وتجلس وتنتظر ، وتعود خائبة الرجاء .

هذه الليلة عادت مبكرة ، غادرت أحواض الموز بعد مايقرب من ساعة إنتظار ، لم تطق المكوث أكثر ، فلم تعد تحتمل قسوة الإنتظار وما يعقبها من خيبة الأمل .

صعدت لتطوئن على زوجها ، الفت امها جالسة على حافة الفراش ، وتطعم الباشا بيدها ، دنت منهما ، وقبّلت جبهتيهما

- بسم الله ما شاء الله ...الحمد لله ياباشا إتردت لك عافيتك .

رد الباشا وعيناه تفيضان حنانا

-- البركة ف أم السعد ...لولاها الواحد ماكانشى يعرف مكانه فين دلوقتى .

قاطعته أم السعد داعية

--- الشر بره وبعيد يا باشا ، إحنا ملناش غيرك نتسند عليه ، وآني ...آني خدامتك ياباشا

-- متقوليش كده يا أم هنية ، ومش عايز أسمعها منك تانى ...مفهوم ؟

نظرت هنية إليهما ، وهما يتبادلان الثناء ، أيقنت أن المكان ليس مكانها ، فانسحبت بهدوء ، دون أن يشعرا بانصرافها من الغرفة .

أشرقت الشمس وغربت ، تاركةً خلفها ليلاً شديد الحرارة ، وبلا نسمة هواء رطبة .

هنية تجلس فى مكانها بين أشجار الموز ، ترجو الثوانى ألا تمضى قبل أن يأتى فارسها المنتظر ونغمات نايه الحالمة .

تستدعى ذاكرتها طيفه وهو يغادر ، لم تتبين شيئًا من ملامحه ، سوى إنعكاس ضوء القمر حينذاك على ظهره ، فبالكاد تبينت لون قميصه الرمادى وبنطاله الغامق وشعره الأسود .

بدد شرودها نغمات ناي تتصاعد ، إنتفضت مرتعشة ، همت أن تهرول إلى مصدر الصوت المتصاعد ، لكنها تجمدت مكانها ، انتظرت حتى هدأت انفاسها ، لكن قلبها لم يهدأ ، فما زال يواصل خفقانه المضطرب ، إقتربت فى حذر ، حتى بلغت مكانها السابق ، لا يفصل بينها وبينه ، سوى شجرتى موز ، والمجرى المائي الضيق ، أسندت ظهرها على جذع الشجرة ، أغمضت عينيها ، وسبحت فى بحور النغم .

أنهى عزفه ، نهض مولياً وجهه شطر منازل القرية ، تحركت مهرولة بين الأشجار ، لتسبقه بخطوات ، فتنظر وجهه ، شعر بحركةٍ غريبة فى الجهة الأخرى من المجرى المائي ، لم يتردد للحظة ، تخطاه فى قفزةٍ واحدة ، واندفع صوب مصدر الصوت ، تفاجأت به أمامها مباشرةً ، تسمرت فى مكانها ، دنا منها ، رأها ، أحنت رأسها خجلا ، همس

- إسمى...أحمد

حباتُ لؤلؤٍ تتلألأ فوق جبينها الوضاح ، تمتمت

-- عزفك حلو قوى يا سي أحمد

ابتسم ، قال هامساً

- عجبك بجد؟

-- عجبنى ؟...وحياة سيدى أبو العزايم عزفك يجنن ...حلو قوى قوى يا سي أحمد

فاجأته العبارة ، فلم يكن الولى أبو العزايم معروفاً فى نواحيهم ، إقترب منها أكثر ، عرفها ، زوجة سعادة الباشا ، تذكر يوم وفاة والدها ، عندما مرت الجنازة عبر مزرعة الموز فى طريقها للمدافن ، كانت هىّ وأختاها وأمها يتابعن الجنازة من نافذةٍ فى الدور العلوى لقصر الباشا ، حينذاك ، همس له صديقه جمال وهو يشير بطرف عينه إليهن

--- بص ..بص يا أحمد ..اللى ف النص دى تبقى مرات الباشا

لمحها بطرف عينه دون أن يلتفت تجاههن ، دنا منها خطوة أخرى ، تأكد إنها هىّ ، تمهل قليلاً وعيناه تغوصان فى حدقتيها ، فغضت طرفها ، همس

- وإنتى ...إنتى الست هنية حرم شوكت باشا

لم تجبه ، أرخت طرحتها الحريرية على نصف وجهها العلوي

، وألقت بطرفها وراء كتفها الأيسر ، واستدارت منصرفة تتعثر فى خطاها ، جاءها صوته غازياً أوردتها وشراايينها

- هأستناكى بكره زي دلوقتى

كانت تبطئ الخطى وهى تبتعد عن المكان الذى يقف فيه متطلعاً إليها ، وقلبها يحلق فى فضاءات لا عهد له بالتحليق فيها من قبل .

قفزت السلالم قفزاً ، اندفعت داخلةً غرفتها ، ألفت أمها تناول الباشا دوائه فى ملعقةٍ كبيرة ، إنحنت على أمها وقبّلتها ، واستدارت ناحيته وقبّلته فى جبينه

- بالشفا ياباشا

قبّلت أمها مرةً أخرى ، وجرت خارج الغرفة ، تهبط السلالم مهرولة .

أختاها يتسامران ، لم تتمالك نفسها من الفرحة العارمة والنشوة التى تغمرها ، وتستحوذ على كل مشاعرها .

- شفته يا راوية ..شفته

-- شفتى مين ؟

- أحمـ......

تجمد لسانها فجأةً ، وأنحشرت باقى الأحرف فى حلقها ، بينما أختاها يتطلعان إليها فى دهشة ، بادرتها راوية متساءلة

-- شفتى مين يا هنية ياختى ...ومين أحمد ده ؟

تمالكت هنية أعصابها ، ولملمت شتاتها المبعثر مشاعر متدفقة ، جلست على حافة الفراش ،والفرحة مازالت تشكل ملامح وجهها ، همهمت

- مفيش...الظاهر إنى بأخطرف م الحر.

ضحكت رئيفة ، همست فى أذن أختها الكبرى وهى تهم بمغادرة الغرفة

--- سلامتك يا ختى ...متقلقيش وكأنى ما سمعتش حاجة

إنصرفت تاركةً هنية واروية بمفردهما فى الغرفة ، دنت منها راوية وهمست

-- هو ده بقى اللى كان ملخبط حالك الكام يوم اللى فاتوا ؟

صمتت برهة تتطلع إلى وجه أختها ، أردفت

-- إحكيلى يا ختى ...مين أحمد ده ؟...وشوفتيه إزاى وفين وإمتى ؟

التفتت إليها هنية ، والفرحة تتدفق من حدقتيها

- حلو قوى يا راوية ...حلو قوى قوى...الله عليه ..زى القمر ليلة اربعتاشر

ضحكت راوية ضحكة خفيفة

-- وشفتى القمر ده فين بقى ؟

- عند الحوض الغربي

انتفضت راوية فى ذعر

-- يانهار أبوه أسود !! ، بيعمل إيه ف الحوض الغربي ؟! ، وإزاى إتجرأ ودخل مزرعة الموز؟

- يا بت ما دخلشى ، ده كان قاعد ف الناحية التانية يم القناية ، يعنى ف زمام الأرض اللى بيفلحها الحاج عوضين وولاده

-- وسيدى أبو العزايم مانى فاهمة حاجة ! ، يعني إنتى اللى خطيتي القناية

- يابت أصبرى عليّ وأنا هأحكي ليكى كل حاجه

-- إحكى يا ختى إحكي ...آدينى سكت

- من كام ليلة وآني قاعدة مطرح ما بأقعد كل يوم ، في حوض الموز الغربي ، سمعت صوت ناي ، تقوليش كروان يا بت يا راوية

-- وبعدين يا هنية وبعدين

- المهم إتخفّيت ف الضلمة وشجر الموز ، شفته من غير ما يشوفنى أو يحس بيا

-- وبعدين حصل إيه ؟

- أثّر فيّا صوت الناي قوى قوى يا راوية ، حسيت بأني بأطير ف السما ، المهم استنيته تاني ليلة بس ما جاش ، ومن ليلتها ما جاش إلا الليلادي ، وقعد يعزف ع الناي ، وأني متخفّية ، لحد ما سكت العزف ، طليت عليه لقيته قايم ماشي ، جريت بين الشجر ، كان نفسي أشوفه يا راوية

-- وشفتيه ياختي؟

- فجأة لقيته واقف قُبالي

-- وبعدين يا هنية ...كلّمك؟

- قاللي...قاللي

-- قال لك إيه ...إنطقي

- قاللى إسمه أحمد ..وقاللي كمان إنه هيستناني الليلة الجاية

صمتت هنية ، وراوية تتطلع إلي وجهها وخديها المتوردين



--وهتروحي تقابليه يا هننية ؟

أطرقت هنية رأسها إلي أسفل ، ثم مالبثت أن رفعت عينيها فى مواجهة عيني أختها

- أه...هأروح

-- خدي بالك يا ختي ، الباشا لو عرف هيقتلكوا إنتوا الاتنين

همهمت هنية كمن يتحدث إلى نفسه

- الباشا كل همه عيل يورثه ،....وبعدين هو يعني هيعرف إزاي ؟ .

تجتاز هنية أشجار الموز بخطى سريعة ، تحملها أحلامها لتحلق بها في فضاءات النغم الحالم ، في طريقها لملاقاة من خفق قلبها له بشدة .

كان على الطرف الآخر من المجرى المائى الصغير ، يقف متلهفًا للقياها ، وبمجرد أن لمحها تبرز من بين الأشجار ، قفز

فى رشاقة متخطياً المجرى المائي ، غضت الطرف ، مد يده لتحيتها ، أمسك يدها مُودعاً أشواقه الملتهبة فى كف يدها ، فأقشعر جسدها كله .

جلسا مفترشين بعض أوراق الموز

- كنت متأكد إنك هتيجي

نظرت إليه فى خجل ، همست متساءلة

--وإيه اللي خلاك متأكد ؟

- عنيكي

ردت وقد إحمرت وجنتاها

--مالهم عنيا يا سي أحمد ؟

- هما اللي أكدوا ليّا إنك هتيجي

-- عنيا ؟...عنسا كدابين يا سي أحمد ، ما تصدقهمشي

- عنيكي لو يكدبوا ع الدنيا كلها ، ما يكدبوش عليّا أنا

اختلج قلبها بين أضلعها ، وازداد خفقانه ، همست

-- إنت مش هتعزف واللا إيه ؟

عزف على نايه بأصابعه ، بينما كانت أنغامه تعزف على أوتار قلبها ، حلقت فى سماء أنغامه ، رأته يحملها بين ذراعيه ويحلق بها نحو القمر والكواكب تصطف على جانبي السماء ، كأنه موكب عرس ، رأت الفراشات يتبعنها ممسكين بأطراف ثوبها الأبيض .

مضي الوقت وهى سكرى مغمضة العينين ، توقف عن

العزف ، تأملها ، وجهٌ ملائكي كالبدر ، أنفٌ دقيق ، شفتاها حبتي كرز في حجمهما ولونهما .

إنتبهت على صوته يأتيها من أعماق أحلامها

- هنية...إنتي نمتي ؟

فتحت عينيها لتقع نظراتها فى حدقتيه الواسعتين ، شعرت بنظراته تخترقها ، وأنفاسه تلفح وجهها ، أودعت فى نظراتها له كل ما بداخلها من شوقٍ جارف ، وانطلقت مبتعدة فى طريقها إلى قصرها

أقبل الليل بطيئًا ، هنية تعد الثواني عدًا ، وما إن قاربت الساعة الثامنة مساءًا ، حتى هرولت لتختفى بين أشجار الموز ، تشيعها عينا راوية أختها وكاتمة أسرارها .

كان أحمد فى إنتظارها ، وما إن رأها ، إندفع إليها لملاقتها آخذًا كفيّها بين كفيّه ، وعيناه تغوصان فى ولهٍ فى بحر عينيها ، أفسحا المجال لنظراتهما أن تجيش بما يعتمل فى قلبيهما ، ثم ما لبث أن بدأ العزف على نايهِ ، فأغمضت عينيها واستراحت على كتفه .

أم السعد تجلس على حافة الفراش ، بينما شوكت باشا يتمدد مستندًا على ظهر سريره ، وهى تناوله حبات الدواء بعدما فرغ لتوه من تناول عشائه .

- أنا مش هأنسى ليكي الجميل ده يا أم هنية ، وهيفضل دين فى رقبتي لحد أما أموت ..

وضعت أم السعد كفها بتلقائية على فمه

-- بعد الشر عليك ياباشا ، إن شاالله أنا وإنت لأ.

يمسك بيدها على فمه ، ويقبّلها فى إمتنان ، ثم يطيل النظر فى عينيها ، فتطفر دمعتان من عينيه ، فتسارع أم السعد بمسح دموعه بطرف كم جلبابها ، فينزاح قليلاً مُبديًا جزءًا من كتفها المرمري .

- ما أخبيش عليكي يا أم السعد ، أنا كل قلقي عليكم ، هتعمولوا إيه لو مُت دلوقتي ، وما ليش وريث من هنية يورثني ، وإنتم مقطوعين من شجرة ، غلابة وسط ديابة ما بترحمشي .

ينهار باكيًا ورأسه فوق صدرها ، فتنساب دموعه الدافئة بين نهديها ، تحوطه بذراعيها ، وتربت على ظهره بحنان ، فيجهش بالبكاء ويزداد إلتصاقاً بصدرها .

هنية تسبح فى ملكوت سماوات عزفه ، وتحلق روحها مع نغمانه الحالمة .

يتوقف عن العزف ، يضمها إلى صدره ، تستلقى على ظهرها ، فينحني بصدره عليها ، ويقبّلها فى شفتيها ، وهى ما زالت مغمضة العينين ، بينما راويه تختبئ خلف جذع شجرة موزٍ

على مقربةٍ منهما ، تتابع ما يحدث فى شغف ، ومشاعرها الأنثوية تشتعل فى جسدها الغض ، وعندما أدركت أن ما يحدث أمامها تجاوز ما رأته حدًا فاصلاً بين منطقتي الأمان والخطر ، تناولن بعض الحصى وقذفت به تجاههما ، كي تنبههما إلى خطورة ما هما مقدمين عليه .

نهضت هنية واقفةً تزيل بعض ما علق بجلبابها من تراب ، بينما كان أحمد يرمق راوية شذرًا .

استأذنته هنية وهمت بالإنصراف مع أختها .

- تصبح على خير يا سي أحمد ، لازم أمشى دلوقتى ، الوقت إتأخر .

-- بس أنا مسافر مصر ف الفجرية !

- مسافر ! ...مسافر ليه يا سي أحمد ؟

-- الدراسة هتبتدي ف الكلية من بكره

- كلية ؟ ...إنت بتدرس إيه يا سي أحمد ؟

-- فنون جميلة

- يعني إيه ؟ ...مش فاهمة ؟

-- أنا بأدرس رسم و تصوير

تهلل وجهها فرحًا ، تساءلت فى عفوية

- بترسم تصاوير يعنى؟

-- أه

صمتت لبرهة ثم استطردت

- وهترجع إمتى من مصر ؟

--الخميس الجاي...

نادتها راوية بصوتٍ خفيض

--- ياللا يا هنية إحنا عوّقنا قوى ، الباشا وأمك هينشغلوا علينا .

همست هنية وهى تبادر بالإنصراف

- خلاص هأستناك الخميس الجاي يا سي أحمد .

-- هتوحشيني يا هنية

- وإنت كمان يا سي أحمد ، هتوحشني قوى .

ابتعدت هنية وتوارت مع أختها بين أشجار الموز ، بينما ظل هو واقفًا مكانه إلى أن إختفيا تمتمًا عن ناظريه ، فأنصرف منتشيًا يتحسس شفتيه ، ويتلمس آثار رضابها عليهما .

كعادتها مرت هنية على غرفتها بالدور العلوي ، كان الباشا نائمًا فى فراشه ، بينما أمها تفترش الأرض بجواره متوسدةً ذراعها الأيسر .

تعالت ضحكاتهما وهما يتبادلان الحديث في البهو الكبير ، فقد آثرا الإبتعاد عن غرفتهما كي لا يقلقا أختهما الصغرى رئيفة ، وكي يتحدثا على راحتهما دون مواربة أو تلميح .

فوجئا بأمهما تهبط الدرج ، وهى تفرك عينيها ، دنت منهما على مهل ، ورمقتهما مستنكرةً علو صوت ضحكاتهما .

- وبعدين معاكوا يا بنات ، وطوا صوتكم شوية .

التفت إليها هنية ، والإبتسامة لا تفارق شفتيها

- أخبار الباشا إيه يا أمه ؟

-- كويس يا هنية ...كويس ، المهم إنتى

تطلعت هنية إليها مندهشة

- أنا ! ....أنا مالي يا أمه ؟

-- مش تشدي حيلك يا بنتى وتلحقي تخلفي لنا عيل

قاطعتها هنية ضاحكة

- أعمل إيه يعني ؟

-- لاغيه يا بنتي ، قربي منه ، الراجل هيتجنن علشان يخلف وريث ليه

صمتت لحظات ثم أردفت متساءلة

تعملي إيه ؟ ...آني اللي هأقول لك تعملي إيه ! ساعديه يا بنتي

- وسيدي أبو العزايم يا أمه أنا ما قصّرت ، بس هو الظاهر خجلان مني

-- يا بنتي ...الراجل لو مات ، أهل البلد هياكلوا لحمنا حي

برقت عينا هنية ، وانبرت متساءلة فى دهشة مصطنعة

- خايفة علينا يا أمه ؟

تنهدت أمها بحرقة

-- أمال هأخاف على مين يا بنتى



ألقت هنية بقنبلتها فى وجهها

- طب ما تجيبي إنتي العيل يا أمه

نظرت إليها فى دهشة واستغراب ، بينما اعتدلت راوية ونظراتها تتأرجح بين أمها وأختها

-- يا عيب الشوم يا هنية ، أجيب عيل منين يا هنية ؟ ... ومن مين؟

- م الباشا يا أمه

جلست أم السعد حيث تقف ، غير مصدقةٍ لما سمعته ، بينما انفجرت هنية ضاحكة ، تبعتها راوية بعدما استوعبت الحوار ، ثم نهضتا معًا ومضيا في طريقهما إلى غرفتهما .

التفتت هنية إلى أمها الواضعة رأسها بين كفّيها ، قالت فى هدوء

- فكّري فيها يا أمه .....فكّري .

أم السعد تقف شاخصةً إلى وجه الباشا الغارق فى نومه ، وذهنها يكاد ينفجر ، فكلمات هنية لها ، كانت مساميرًا دُقت فى رأسها ، تتأرجح بين الإستحالة والمحال وسوء المآل ، وبين الممكن والمأمول وطيب العيش في وجود سندٍ لها ولبناتها ، يستعيد ذهنها نظرات الباشا الغريبة لها ، هى كأنثى تدرك

تمامًا مغزى تلك النظرات ورغبته فيها ، ويذهب بها عقلها إلى أنها نظرات عطف ، ولم لا؟ ، أليست أم زوجته ، أى بمثابة أمه هو أيضًا ، تضحك وتتساءل " كيف تكون أمه ؟ وهى أصغر منه بعشرين عامًا ، بكره هنية تحبل ، أحبل أنا وأجيب عيل ننسبه لهنية ، الباشا كل همه عيل يورثه ، ما يفرقشى معاه من هنية واللا من أم هنية ، طب والناس يا أم السعد ! ، مالهم الناس ؟ ، لو عرفوا هيحرقونا ، وإيه اللي هيعرفهم ؟ ، هو فيه حد منهم بيشوفنا ؟! ، لالا ..بلاش يا أم السعد ، طب والحل ؟ نترمي أنا وبناتي ف الشارع ؟! "

- فيه إيه يا أم هنية ؟؟

فاجأتها كلماته ، تنبهت

-- مفيش يا باشا مفيش ، أنا كنت بأطل لجل ما أطمن عليك

- يا أم السعد أنا بقالي ساعة بأكلمك وإنتي ولا هنا ! ، واقفة زنهار زي عسكري الحدود

مالك بجد؟ ...فيه حاجة مضايقاكي ؟؟...قوليلي

-- مفيش يا باشا ، نام إنت يا باشا ، وآني قاعدة تحت رجليك ، فاضل يجي تلات ساعات ع الفجر ما يشقشق ، نام إنت واستريّح .

جلست مستندة بذراعها على حافة الفراش ، وأسندت رأسها على ذراعها ، أغمضت عينيها بينما كان عقلها متيقظًا ، وقد اختزل كل الأسئلة إلى خيارين لا ثالث لهما ... الوريث ..أو ...الضياع .



الفصل الثالث

لأول مرةٍ منذ تفتحت براعم أنوثتها ، تعرف المساحيق طريقاً لوجهها ، أمضت ما يزيد عن الساعتين تضع منها وتزيل ، وأختاها يراقبنها بشغف ، إلى أن استقرت أخيراً ، فانتقلت إلى تمشيط شعرها الأسود الطويل ، أرخته وراء ظهرها وعلى كتفيها ، ثم غطته بطرحةٍ سوداء ، وانطلقت إلى حيث يأخذها الشوق ، يقود قلبها خطاها إلى مزارع الموز.

وجدته في انتظارها ، وعندما رآها لم يتمالك نفسه من الضحك ، فاعترتها نوبة خجل ، لم تدر لم يضحك ، دنا منها ، شعرت بانفاسه الساخنة تلفح وجهها ، همس

- إيه اللي عاملاه ده يا هنية ؟

تطلعت إليه في دهشة .

-- إيه ؟...مش حلو ؟

استطرد قائلاً

- لالا ...مش قصدي ، بس كتير قوي يا هنية ، إنتي على طبيعتك أجمل بكتير

أخرج منديله وطفق يمسح المساحيق التي لطخت بها وجهها ، ثم أعاد منديله إلى جيب بنطاله ، أنعم النظر إلى وجهها النضر ، واحتضنه بين كفيه ، همس في شوقٍ ورغبة

- إنتي كده أحلى من مليون قمر

انسابت أنامله تداعب شفتيها ، أغمضت عينيها ، فكان لها ما سعت من أجله ، وكان له ما سعي من أجله .

لم يدريا كم من الوقت مضى وهما غارقان في بحور العسل ، قبّلته في شفتيه بحنوٍ بالغ ، صم نهضت وعدّلت من ثيابها ، تبعها ناهضاً وعدّل ثيابه ، إحتضنها بقوة ، تأوهت ، أبعدته بلطفٍ وهى تهمس

- آني لازم أمشي دلوقتي ، أشوفك بكره .

فراشةٌ تطير فاردة جناحيها تحتضن النسيم ، لا تكاد الأرض تشعر بخطواتها ، تصعد السلالم مغمضة العينين ، تستعيد حلماً استيقظت منه منذ دقائق مضت ، كم ودت ألا تستيقظ منه ، كم ودت ألا يتفارق الجسدان الممتزجان في نشوةٍ عارمة ، كانت بركاناً فانفجر لحظة ملامسة شفتيه لشفتيها ، تداعت حممه فانصهرا معاً ليعزفا سيمفونية عشق ، لطالما تمنت أن تعزفها أوتار جسدها ، فتحت عينيها ، لم تتفاجأ بما رأت ، أمها تغط فى نوم عميق ولكن أين ؟ ، فوق فراشها وبجوارها شوكت باشا نائماً وابتسامة رضا ترتسم على شفتيه .

هبطت السلالم ، لتجد راوية فى انتظارها ، وترمقها بعين متفحصة ، لم تسألها ، فملامح وجهها وشت بكل شئ ، أفسحت لها مكاناً بجوارها وضمتها إلى صدرها بحنان .

راوية ذات السبعة عشر ربيعاً ونيف ، فى فترة مرضه أوكل لها الباشا مهمة الإشراف ومتابعة كل شئون عزبته ، عقلها يكبرها بأعوام وأعوام ، تتعامل مع كبراء العزبة ندا لند ، تراجع الحسابات وتستلم الأموال .

اقتنع الباشا بقدراتها ورجاحة عقلها ، فلم يرفض لها اقتراحاً

اقترحته ، تتابع بمهارة الإشراف على أراضيه ، كما تتابع بدقة ما يدور بين أمها وبينه ، وتعي تماماً ما يحدث بين أختها وحبيبها ، وتعي تماماً ما دفع أختها إلى أحضان أحمد ، فرغم صغر سنها إلا إنها كانت مؤمنة ، أن الجسد عندما يجوع ، فلا بد له أن يشبع .

الشمس تلقى بأشعتها الذهبية ، فتلقى الأشجار بظلالها على أرضية الدوار الكبير الذى يتصدر بيت الحاج عوضين ، راوية منهمكة فى مراجعة الحسابات ، ثم تنهدت إرتياحاً

- تمام كده يا حاج عوضين

الحاج عوضين يلتفت للداخل منادياً إبنه سعيد ، وآمراً إياه بإحضار النقود من الدولاب .

يعود سعيد بعد برهة وبين يديه مظروفاً أبيض ، يسلمه لوالده ، وبدوره يناوله لراوية التى ما لبثت أن فتحته وباشرت عد النقود ثم تعيدهم إلى داخل المظروف ، وتنهض واقفة

ـ تمام كده يا حاج عوضين ، أفوتكم بعافية

-- قوم يا واد يا سعيد ، وصّل الست راوية لحد القصر .

في طريقهما إلى القصر على الطريق الترابي ، يتقدمها سعيد بخطوتين ، صامتاً دون أن ينبس ببنت شفة ، فجأة تصرخ راوية متألمة

ـ فيه إيه يا ست راوية ؟

= رجلى !...رجلي إتلوت ...آه

تستند على كتفه اليسرى وهى تتألم ، يضرب أخماساً فى

أسداساً ، لا يدرى ماذا يفعل ، يتمتم بكلماتٍ مبعثرة الأحرف

= طب أنا أعمل إيه دلوقتي؟

ـ تعمل إيه؟ ....مفيش يا خويا مفيش ، هأتسند عليك لحد ما أوصل للبيت .

قبيل البوابة بعدة أمتار تتوقف راوية



ـ كفاية لحد هنا يا سي سعيد ، كتر خيرك

= طب إنتى هتمشى إزاي يا ست راوية ؟

ـ ماتقلقشي عليّ أنا بقيت كويسة

تصمت برهةً وهى تتطلع إلى عينيه الخجلتين ، ثم تستطرد فى نعومة آثرة

ـ قلقان علىّ يا سي سعيد ؟

= خايف لأكون أنا السبب

تبتسم

ـ طب لو قلت لك إنك السبب هتحصل إيه ؟

= مش هأسامح نفسي طول عمري

ـ سلامتك يا سي سعيد ، إطمن آني كويسة بس إبقى طل علىّ كل شوية

= أطمن إزاي ؟!...وأطل عليكي إزاي ؟...هو أنا أقدر أهوب ناحية السرايا !

ـ ماهو أنا لو غالية عليك هتشوف صرفة

يقف حائراً لا يدري بما يجيبها ، بينما هى لا تدع عينيه يفلتا من قبضة نظرتها ، تفاجئه

- بكره بعد صلاة العشا تعالى عند حوض الموز الغربي،

- هتلاقيني هناك

تركته مذهولاً واستدارت وواصلت سيرها بطريقة طبيعية فى طريقها إلى بوابة السرايا .

انتظرت راوية إلى أن توارت هنية بين أشجار الموز ، فسارعت بإقتفاء أثرها ، رأتهما عن بعد جالسان تحت إحدى الأشجار ، فسلكت الطريق المقابل حتى ابتعدت لمسافةٍ غير كبيرة ، ثم خرجت إلى حافة الحوض ، تتطلع عبر المجرى المائي الصغير ، باحثةً عن سعيد ، الذي كان مختبئاً داخل زراعات الذرة ، وبمجرد أن لمحها ، تقدم بضع خطوات إلى أن ظهر أمامها على الحافة الأخرى للقناة ، ووقف يتطلع إليها ، أشارت له بيدها ليتخطى القناة فتخطاها ، أمسكت بيده وقادته إلى داخل حوض الموز .

جلسا متجاوران تحت إحدى الأشجار ، همس متسائلا

- رجلك عامله إيه دلوقتي ؟

= بخير كويسة ، بس لسه بتنقح علىّ ، شوف كده

- فين الوجع ؟



رفعت جلبابها حتى لامس طرفه ركبتيها

- أهو...هنا يا سي سعيد ، شوف وارمة إزاي

أمسكت بيده ووضعتها فوق ركبتها اليسرى

- حاسس بالورم ؟

تحسس بأصابعه أسفل ركبتها

- لا مش هنا ، فوق شوية.....آه

صرخت متألمة وأمسكت بيده وضغطتها فوق ركبتها

- بتوجعني قوي يا سي سعيد

إتكأت برأسها على كتفه ، وجسدها يرتعش رغبةً في ضمه إلى صدرها ، إلا أنها تماسكت ، وأبعدت يده برفق ، وغطت ساقيها بالجلباب

- إلا قولي يا سي سعيد ، إنت بتدرس واللا بتفلح ف الأرض ؟

= بأدرس ف الجامعة ، كلية التجارة

- يعني هتبقى تاجر ؟

ضحك حتى بدت نواجذه

= لا يا ست راوية هأتخرج وأشتغل محاسب

- ياه كل العلام ده عشان تعرف تحاسب ، طب ما أنا أهو ومن غير علام وبأعرف أحسب

= لا يا ست راوية المحاسبة غير كده خالص ، بس برضه إنتي شاطرة قوي وواعية

- بجد يا سي سعيد ؟

مضى الوقت سريعاً ، نهضت فتبعها واقفاً

- أنا هأمشي دلوقتي ...هتيجي بكره ؟

أمعن النظر فى عينيها النجلاويتين اللتين تفيضان شوقاً ورغبة

= إنتي عايزاني آجي ؟

تنهدت فى غنج

- آه...أه عايزاك ....بكره ف نفس الميعاد ، تصبح على خير .

تركته خلفها يتبعها بعينين متفحصتين إلى أن إبتلعلها الظلام ، فعاود أدراجه متخطياً المجرى المائى ، ومضى فى طريقه نحو العزبة

أبطأت راوية عندما تناهى إلى أذنيها تأوهاتٍ لصوتٍ تعرفه جيداً ، فتحسست طريقها محتميةً بجذوع أشجار الموز ، وأختبأت

خلف أحدها ، فرأتهما يتطارحان الغرام ، ولا يدريان بما حولهما ، غارقان فى بحور من الشهوة ، مكتث تراقبهما ، وجسدها تأكله نيران الرغبة أو كادت ، تماسكت وابتعدت فى خفة ودون أن يشعرا بها ، ثم تسارعت خطاها في طريقها إلى السرايا .

الحاج عوضين يفترش حصيرةً فى زاويةٍ من دواره الكبير ، مستنداً بكوعه على مسند قطني ، ينفث دخان الشيشة ومستغرقاً في تفكيرٍ عميق ، يمد يده داخل صديريته ، ويخرج ساعته ، ينظر فيها ، ثم يعيدها داخل صديريته مرةً أخرى .

يدلف سعيد فى هدوء إلى داخل منزلهم ، ماراً بأبيه

- مسا الخير يا با

= إيه يا أبني !...كنت فين لحد دلوقتي ؟

- آهو....كنت بأتمشى ع الجسر

= بقالك شهرين ما رحتش الجامعة ، وكل ليلة بتتمشى ع الجسر وترجع متأخر !

يعتدل جالساً

- فيه إيه يا أبني ؟

= مفيش يابا ، زي ما أنت شايف ، الإمتحانات الشهر الجاى ، وأنا كل ليلة بأطلع أذاكر ع الجسر

- طيب يا أبنب ، ربنا معاك إنت واللي زيك ، خش نام ، وكل لك حاجة قبل ما تنام .

القمر يحتل الجانب الإيسر من السماء ، بينما الحاج عوضين يخمد الجمرات الملتهبة ، وينهض في تكاسل ، ويمضي إلى الداخل ، ويدخل حجرته ويباشر خلع جلبابه ، وأم سعيد تتطلع إليه وملامح حيرة تشكل تقاطيع وجهها ، يرمقها مستغرباً

- إيه يا حاجة ؟ ...مش عادتك تصحي لدلوقتي !

= مفيش يا حاج

- لأ فيه يا حاجة ، عنيكي وصوتك بيقولوا إن فيه

تنهدت في أسى وهمهمت

= إبنك سعيد يا حاج

اعتلى السرير الحديدي ذو الأربعة عمدان ، تمدد بجوارها مستنداً على كوعه الإيسر ، وعيناه تتفحصانها

- ماله سعيد؟

= أحواله يا حاج مش عجباني الكام يوم اللي فاتوا

- عشان الإمتحانات ، ما هو كل سنة بيبقى كده

= لا يا حاج ، المرادي مش قلق إمتحانات

ـ أمال إيه ؟ ما تخشي في الموضوع دوغري

= الواد زي ما يكون تايه ، طول الوقت سرحان ، زي ما يكون عايش ف دنيا تانية ، وبعدين ....الواد عِدم يا حاج،

خس النص ، ووشه بقي زي اللامونة

ـ متشغليش بقالك يا حاجة ، هو كده بيخس أيام الإمتحانات

= طب وخروجه كل ليلة !

ـ أنا سألته وقال لي بيذاكر ع الجسر

اعتدل جالساً ورمقها بغضب

ـ شكلك مش مستريحة ، بأقول لك سألته ، عايزاني أعمل إيه يعنى ؟ ...أمشي وراه !

= لا يا حاج وسيدك النبي ما تغضب ، مش قصدي وكتاب الله ، أنا بس قلقانة عليه ، وقلبي مش مرتاح

ـ طب نامي دلوقتي ، الصباح رباح .

راوية لم يغمض لها جفن ، تتقلب فى فراشها ، تنظر إلى أختها النائمة ، وتغبطها على ما هي فيه من نعيم ، يمر على خاطرها سعيد

فتتلوى فى فراشها ، وتزداد رغبتها في إرواء عطش جسدها ، كم تشتاق إلى الغد ، وكم من آمال نسجتها على خيوط مساءه .

الشمس تتوسط السماء ، أم السعد تستيقظ ولا تجد الباشا بجوارها ، تنهض في تكاسل ، تهبط الدرج ، تلمحه جالساً فى شرفة الدور الأرضي ، يطالع الجريدة ويحتسي قهوته الصباحية ، تتجه صوب مطبخها لتعد لنفسها كوباً من الشاي ، تتصاعد رائحته ، تشعر بميل للتقيؤ ، تسارع بالذهاب إلى

دورة المياه ، تفرغ ما في جوفها ، تتجه إلي حيث يجلس الباشا ، تلقي عليه تحية الصباح ، يزيح الجريدة عن وجهه، هاله إمتقاع وجهها

- مالك يا أم السعد ؟ ...فيه إيه ؟

تطأطئ رأسها خجلاً ، تتمتم بكلماتٍ خافتة

= آنى ....آنى حامل

ينتفض واقفاً مذهولاً غير مصدقٍ لما سمع ، ثم لا يلبث أن تنفرج أسارير وجهه ويصيح فرحاً

- حامل!...بتقولي حامل يا أم السعد ؟

= أه يا باشا ....حامل

ينحني عليها واضعاً كفيّه على كتفيها ، وحدقاً في عينيها

- حامل ؟....إنتي متأكدة يا أم السعد ؟....حامل ! .. حامل بجد

= أه يا باشا ...متأكدة

يغمر وجهها بقبلاته إمتناناً ، ثم يتوقف فجأة كمن تذكر شيئاً ، يهمهم متسائلا

- طب وهنتصرف إزاي دلوقتي ؟ ...مع الناس ومع هنية

= ناس مين يا باشا ! ...هو فيه حد ف العزبة كلاتها بيشوفنا وهما هيعرفوا منين ؟ وبعدين ناس مين اللي تعمل لهم حساب ....ده أنت الباشا الكبير ياباشا

تجلسه بهدوء ولطف على كرسيه ، يتطلع إليها مندهشاً

- ده أبني يا أم السعد ! ، ولازم كل العزبة والناحية تعرف إنه ابني

= إبنك طبعاً يا باشا، أمال هيكون إبن مين يعني !

تصمت لبرهةٍ من الوقت ، تحدق في عينيه

= إبنك وإبن هنية مراتك

تطلّع إليها مندهشاً

= أه يا باشا ....إبنك وإبن هنية مراتك

- إزاي يعني يا أم السعد ؟

= من الناحية دي متقلقشي ، أنا هاتصرف مع هنية ، بس الأهم إن محدش ف البلد يهوّب ناحية السرايا لحد ما أولد ، وآني ما هأعتّب ناحية البوابة الشهور اللي جاية ، وكمان هنية مش لازم حد يشوفها الإيام اللي جاية ، وساعة الولادة ننزل البندر وأولد هناك ،لا مين شاف ولا مين دري

انفرجت أساريره دهشةً ممزوجة بفرحة ، قال منبهراً بها

- كل ده يطلع منك يا أم السعد ، والله ما باين عليكي ، ده أنتي طلعتى داهية...ههههه ..أمال بنتك طالعة خايبة لمين !...ههههه .

القمر ينير صفحة السماء ، ونجومها تتلألأ متألقةً في تمازج رائع ، وترسل ومضاتها أحرفاً وكلمات تتهامس فيما بينها .

الباشا خلد إلى النوم غارقاً في أحلامه بإبنه المنتظر ، أم السعد تجلس متربعة على سرير في غرفة بناتها ، يراودها القلق لتأخر عودة إبنتيها هنية وراويةً ، بينما الصغرى غلبها النعاس فنامت .

راوية تدلف إلى الغرفة مغمضة العينين ، تتراقص في نشوة ، أمها ترمقها مستغربة ، تتفاجأ راوية بوجود أمها في غرفتها

- آمه !....إيه اللي مسّهرك لدلوقتي ؟

= فين أختك يا راوية ؟ ...وإنتى! ...مالك مش على بعضك ليه يا بت ؟....جرالك إيه ؟



- أختى ! ...ما أنتي عارفة إنها زي كل ليلة ...ف حوض الموز يعني....إيه اللي جد !

= وإنتى كنتي فين لدلوقتي ؟

- هأكون فين يعني ! ، كنت بأتسامر مع القمر ، حلو قوي القمر يا أمه

= قمر إيه اللي حلو يا بت ؟

- القمر يا أمه ..ف السما ...بأكلمه ويكلمني ، وألاغيه ويلاغيني ، وشجر الموز فرحان بينا يا أمه ، تصدقي يا أمه ..أوراقه كت بتضحك لنا ، وتضحك وتضحك ، لحد ما تتعب من كتر الضحك .

تدخل هنية تمشي الهوينا ، تنظر إلى أمها وأختها بلا مبالاة ، تستلقي على السرير الآخر بجوار أختها الصغري ، وترنو إلى سقف الغرفة شبه مُغيّبة ، ويبدو على وجهها التعب والإرهاق ، بينما عينا أمها يتابعانها بقلق ، قلقها على إبنتيها وما رأته عليهما ، وقلقها مما جاءت إلى غرفتهما خصيصاً من أجله .

- قومي اتعدلي يا هنية ، فيه موضوع عايزه أكلمك فيه

= موضوع إيه يا أمه ؟ ...خير إن شاء الله

أم السعد توزع نظراتها بين إبنتيها مراتٍ ومرات

- آني حامل

صكت راوية صدرها بيدها ، بينما هنية تبدو كمن لم يسمع حرفاً مما قيل

+ حامل ؟ ....حامل إزاي يا أمه ؟

- وطي صوتك يا بت لأختك تصحى ، اتكتمي وإسمعي الكلام للآخر

- آني حامل ف إبن هنية والباشا....الوريث يعني .

الفصـــل الرابــع

سعيد يتلمس طريقه وسط الزراعات في الجهة الأخرى من الحوض الغربي لأشجار الموز ، بينما يتبعه والده متخفياً ، يلمح راوية عن كثب ، يقفز متخطياً المجرى المائي ، يلتقيا ، يضمها إلى صدره ، ثم يتواريان خلف أشجار الموز .

تمهل والده قليلاً إلى أن غابا تماماً عن ناظريه ، فعاود أدراجه في هدوء ، وقد سرّه ما رأته عيناه .

دخل بيته كفارسٍ عاد لتوه من معركته الأخيرة منتصراً ، يبرم بإصبعيه شاربه الكث وعلى وجهه إبتسامةٍ خبيثة .

جلس في البهو الخارجي كعادته كل مساء وصاح منادياً

- يا حاجة ...إنتي يا وليّه

ردت عليه من داخل الدار ، وهى في طريقها إليه

= أيوه يا حاج ، آني جايه آهو

- هاتي الجوزة معاكي وعدة الشاي يا أم سعيد

غابت لدقائق وعادت وبين يديها الجوزة وعدة الشاي ، وضعتهما بجواره حيث كان يجلس مضجعاً على جانبه الأيمن ، يداعب شاربه بين فينةٍ وأخرى .

شرع في إشعال الحطب ، وأشار لها بالجلوس

- أقعدي يا أم سعيد

= خير يا حاج

- أقعدي عندى خبر هيسعدك

= بجد يا حاج !...قول يا أخويا آلهي يسعد قلبك

- الواد سعيد

قاطعته متلهفة

= سعيد ؟ ..ماله سعيد يا حاج ؟

ضحك حتى بدت نواجذه

- إنتي إتخضيتي كده ليه يا وليّه ؟ ، أنا بأقول لك خبر هيفرحك ، مش يرعبك !

= طب قول ، وقعّت قلبي

- إبنك سعيد بيحب الست راوية ، أخت الهانم مرات الباشا

صكت صدرها بيدها

= وإيه اللى يفرح ف كده يا حاج ؟ ...وآني عمالة أقول الواد أحواله إتلخبطت ليه ، وإنت تقول لي المذاكرة والإمتحانات !

صمتت برهة ثم أردفت

= راوية ؟ ...متأكد يا حاج

- أيوه راوية وشفتهم بعينيا دول

= كبدي عليك يا أبني

- إنتي زعلانة يا حاجة ؟...غريبة ده بدل ما تزغردي !

= ما أزعلشي ليه يا حاج؟ ...هو هيطولها فين ؟

- ليه يعني ؟...ده سعيد إبن الحاج عوضين ناظر العزبة ، هو أنا قليل واللا إيه ؟!

= لا يا حاج لا سمح الله ، إنت سيد الرجالة ، بس برضه راوية دى تبقي أخت مرات الباشا الكبير ذات نفسه

- وإيه يعني !...ماهي مش بنته ، ودول أصلاً ما نعرفشي ليهم أصل

= ولو يا حاج ...الباشا هو المسئول عنهم دلوقتي

- ماهو ده يا حاجة غاية المراد ، ركزي معايا شوية وإنتي تفهمي

شرع في صب كوب الشاي وأرتشف رشفة تلاها بأخرى ، ثم تناول الجوزة وسحب نفساً عميقاً بتؤدة ، ثم ما لبث أن أخرجه على دفعات

- الباشا مالوش وريث ، ومراته آدى ليها تلات سنين وماحبلتشي ، لو إبنك إتجوز البت دي وخلّف منها ، هيبقي أبنه هو الوريث مع مرات الباشا وأمها ، بعد موت الباشا يعني

= إنت أحلامك كبيرة قوى يا حاج !

اعتدل جالساً ونظر إليها بغضب

- أحلامي!...طب فزي وإنداري جوّه ....أحلامي قال ، فزي يا وليّه .

أوشك الليل على الإنتصاف ، وراوية لم تعد بعد إلى غرفتها ، هنية تعلم أين أختها ، ولكنها كعادتها صامتة ، وإن كان يساورها بعض القلق لتأخرها ، بينما أمها لا تستقر على حال ، بين الفينة والأخرى تحدق في الظلام المحيط بالسرايا ، علّها تلمح إبنتها قادمة.

الدقائق تمر ببطءٍ قاتل ، وأم السعد كقطٍ بري دائم الحركة ، الهواجس تتلاعب بها ، كادت أن توقظ الباشا ليمد لها يد العون ،

لكنها أحجمت في اللحظة الأخيرة ، رأت في عيني هنية ما بعث بعض الطمأنينة في قلبها .

الباب الجانبي للسرايا يحدث أزيزاً خافتاً ، فاندفعت أم السعد صوب السلالم الخارجية ، لتستقبلها راوية بملامح منتشية ، ووجهٍ مشرق ، وعينين لامعتين ، تتهادى فى خطواتها ، كأنما تسير فوق السحاب .

لم تتمالك أم السعد نفسها فصفعتها على خدها الأيسر وهى تصرخ

- كنتي فين يا بت لحد دلوقتي ؟

هنية تتابعهما عن كثب ، لكنها آثرت ألا تتدخل

= بتضربيني يا أمه ؟!

أمسكت أمها بكتفها بعنف وصرخت فيها

- ردي علىّ ، كنتى فين لحد دلوقتي ؟

= هأكون فين يعني !

ردت عليها بهدوء قاتل ، ولا مبالاة كمن لا يريد شيئاً أن يفسد عليه لحظات سعادته ، ثم أردفت

= كنت ف الحوض الغربي ، وغفيت شوية وما حسيتشي بالوقت .

مضت في طريقها صاعدة السلالم ، تاركةً أمها في ذهول ، لم تصدق كلمة مما قالتها إبنتها ، إلا أن ثورتها هدأت .

هنية في فراشها تتطلع إلى وجه أختها علّها تستبين من ملامحها ما يفصح عمّا بداخلها

- يااااااااه ياهنية ، الحب حلو قوى ...قوي يا هنية

أدركت هنية من كلمات أختها ونبرة صوتها الحالمة ، أنها تذوقت شهده .

يومان مضيا ، أم السعد تقف حجر عثرة أمام راوية ، فلا تسمح لها بالخروج ، بينما هنية تذهب وتعود كعادتها كل ليلة ، تشيعها نظرات أختها في حسرة ، وتنتظرها كل ليلة لتسألها سؤالاً واحداً

- شفتي أحمد يا هنية ؟ ، طب ما خليتيش أحمد يطمنه .

وتتلقى في كل مرة نفس الإجابة

= إزاي بس يا راوية ؟ ، مقدرشي أقول لأحمد حاجة زي كده ، إنتى عايزه تفضحيني يا أختي ؟!.

أسرّت أم السعد بمخاوفها وقلقها على راوية لشوكت باشا ، رجته أن يتبعها ليعرف ماذا تفعل ، وليطمئن قلبها على إبنتها ، والباشا يطمئنها قائلاً

- هنية يا أم السعد آدي لها تلات سنين بتروح كل ليلة تتريض ف حوض الموز ، ف الأول كنت بأراقبها لحد ما إطمأنيت ، ودلوقتي أكيد أختها بتتريض معاها .

= ياباشا أنا مش قلقانة على هنية ، آني مش مرتاحة لتصرفات راوية ، الله لا يسيئك إسمع كلامي مرة وريّح قلبي

- حاضر ...حاضر يا أم السعد هأعمل لك اللي إنتي عايزاه ، بس أصبري علىّ يومين أشم نفسي شوية

انهالت على يديه تقبلهما بإمتنان .

فى الليلة الثالثة ، أبدت أم السعد تلطفاً فى معاملتها لراوية ، مما دعا الأخيرة أن تترجاها للذهاب مع أختها ، لكن الأم أصرت على الرفض .

أتى المساء ، هنية تتوارى بين أشجارٍ الموز ، وراوية تأكلها نار الشوق والرغبة ، وهي تتابع أختها ذاهبةً لتنهل من الشهد كيفما شاءت ، بينما هى محرومة من تذوقه .

كادت أن تتمرد علىٍ أوامر أمها ، وتضرب بها عرض الحائط ، إلا إنها آثرت التريث خاصةً بعدما لمسته من لينٍ في موقف أمها.

أم السعد تراقب راوية خفيةً مبدية إنشغالها بالحديث مع الباشا في شرفة السرايا ، انتظرت قليلاً إلى أن بدأت راوية المضي في طريقها إلى غرفتها ، نادتها

- تعالي يا رواية آني عايزاكي

أتت راوية على مهل ، منكسة الرأس ، حزينة الملامح ، بادرتها أمها متسائلة

- إنتي عارفة أختك بتتريض فين ؟

أصابها الوجوم وتلاعبت برأسها الظنون " الباشا بيشك ف هنية ؟ ، ملامحه لا تشي بذلك ، إذن لمَ سؤالها ؟ "

= لا ...لا يا أمه ما أعرفشي

تطلعت أمها إليها بإندهاش متشككةً فى صدق إجابتها

- خلاص ، أنا كنت هأسيبك تروحي لها ، لكن مادام مش عارفة مكانها..

قاطعتها راوية

= عارفة مكانها وسيدي أبو العزايم عارفة يا أمه

ضحكت أم السعد وضربت كفاً بكف وهى تقول



- شوف البت وعمايلها...خلاص يا بنتي روحي لها بس على شرط ترجعي ..

= أشرطي يا أمه ، اللي إنتى عايزاه آني موافقة

- يا ختي مالك ملهوفة كده ومش على بعضك

= أشرطي يا أمه الله لا يسيئك

- روحي لها يا راوية بس ترجعي معاها ، رجلك ف رجلها .

= م العين دي والعين دي

إنحنت تقبّل يد أمها ، ويد الباشا ، فقد ذهب ظنها إلى أنه هو من أقنع أمها بالسماح لها بالذهاب ، ثم ما لبثت أن تركتهما وهرولت هابطةً السلالم ، وأبتلعها اظلام بين أشجار الموز .

دقيقتان مضيا ، نهض الباشا وهبط السلالم مقتفياً آثارها بين الأشجار ، تنامى إلى أذنيه همهمات آتية من الجانب الإيسر ، توقف وأنصت ليتبينها جيداً ، تأوهات خافتة تخترق أذنيه ، تتبع مصدرها فى حذرٍ وصمت ، شبحان فى الظلام يتطارحان الغرام ، إقترب أكثر ، تفاجأ بزِوجته بين أحضان شاب غريب ، أذهلته المفاجأة فتجمد في مكانه ، ثم ما لبث أن شهق شهقته الأخيرة ، وخر في مكانه ، أفزعتهما شهقته ، فأنتفضا واقفين يستران جسديهما العاريين في ذهول ، الثواني تمر ببطْ شديد ، الباشا ملقى على الأرض ، هنية و أحمد واقفان لا يدريان ماذا يفعلا ، إنصاع أحمد لرجاء هنية له بسرعة الإنصراف ، اقتربت هنية من الباشا ، جسداً ساكناً لا حراك

فيه ، نادته بصوتٍ خافت متقطع ، فلم تتلقى إجابة ، إنحنت على جسده وتحسست أنفاسه ، تيقنت أنه قد فارق الحياة ، إرتعبت وسارعت بالأبتعاد عن الجثة ، لحظات وظهرت راوية ، فقد رأت أحمد يعدو على الطرف الآخر من المجرى المائي ، فسارعت هى بدورها إلى أختها لتستطلع ما حدث ، لم تلحظ الجثة الممددة على الأرض

- حصل إيه يا هنية ؟ ..أحمد كان بيجري كده ليه؟

لم تنبس هنية ببنت شفة ، بينما تولت عيناها الشاخصتان إلى الجسد المسجى الإجابة عنها .

- يا ليلة سودة ! الباشا مات يا هنية .

عادتا إلى السرايا ، أم السعد تجلس فى الشرفة تتابعهما ، وما إن إقتربا من دائرة الضوء ، هالها إمتقاع وجهيهما ، أيقنت أن ما كانت تخشاه ويقلقها قد تأكد منه الباشا ، وما عليها الآن سوى إنتظاره ليخبرها بما رأى وسمع .

كانت تساورها الشكوك في تصرفات إبنتها المراهقة ، الآن تيقنت من صدق حدسها ، ولكن ظل السؤال معلقاً ، ماذا رأى شوكت باشا وماذا سمع ؟ .

الدقائق تمضي متثاقلة والباشا لم يعد بعد ، ساورها القلق ، فاجأتهما في حجرتهما ، وجدتهما يبكيان في صمت وقد تملكهما رعبٍ شديد

- إيه حصل ؟ ... فيه إيه ؟ ...والباشا فين؟...ردوا علىّ

ردت راوية بصوتٍ خافت ، ودون أن تلتفت إليها

= الباشا مات ....مات يا أمه .

تجمدت ملامحها وأنحشرت الكلمات في حلقها ، جلست على حافة السرير ، همهمت أم السعد بعد أن استردت قليلاً من رباطة الجأش

- مات إزاي ؟...شافك يا راوية ؟ ..وشافك مع مين ؟

= لا يا أمه شاف هنية ، ما استحملشي الصدمة

- مراته ! ...هنية !....صدمة !

= أه يا أمه ، اتصدم لما شافها في حضن راجل تاني

- راجل؟ ...راجل مين

= أحمد ....أحمد إبن الحاج حسين .

مع أول ضوءٍ لشمس النهار ، راوية تشق طريقها إلى دار الحاج عوضين ناظر العزبة ، تدق الباب بشدة ، فأستيقظ كل من بداخلها ، خرج سعيد مهرولاً ، تفاجأ بها ، هم بسؤالها عما حدث بالأمس ، إلا أن أباه كان في أثره

- خير يا بنتى !...فيه إيه ؟

= إلحقنا يا حاج عوضين ، الباشا نزل حوض الموز ليلة إمبارح ، وما رجعشي لحد دلوقتي

- طيب يا بنتي ، إستهدي بالله ، خير إن شاء الله ، آني جاي معاكي ، هم معايا يا سعيد .

هرول ثلاثتهم قاصدين أحواض الموز ، عبروا المجري المائي ، تعمدت راوية أن تتجه هى وسعيد للبحث في الجهة الشرقية ، بينما توجه الحاج عوضين للبحث عن الباشا في الحوض الغربي ، وما لبث أن عثر عليه فصاح منادياً عليهما

- تعالوا هنا بسرعة

هرولا معاً ناحيته ، ليجداه واقفاً بجوار جثة الباشا مردداً

- لا إله إلا الله ، إنّا لله وإنّا إليه راجعون .

خرجت العزبة بكل رجالها وشبابها تشيع الباشا إلى مثواه الأخير ، بينما إكتظ البهو الكبير وحديقة السرايا بالنسوة المعزيات . لم تستقبل أم السعد أحداً منهن ، وأختفت فى حجرةٍ علوية مدّعية المرض ، وتولى كلٌ من هنية وراوية إستقبال المعزيات وتلقي التعازي ، إلا أن غياب الأم أثار فضول الكثيرات منهم ، فتبادلن الهمز واللمز .

عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي ، كأن شيئاً لم يحدث ، هنية تمضي معظم لياليها بين ذراعي أحمد ، وراوية بين ذراعي سعيد ، بينما أم السعد ترقب الغد القريب في توجس وحذر .

أحمد يدخل على أبيه ، يقدم قدماً ويؤخر أخرى

- مالك يا أبنى ؟ ...فيه إيه ؟...عايز تقول حاجة؟

= أيوه يا با

- طب وخايف ليه ؟! ..تعالي أقعد جنبي

أفسح له مكاناً بجواره ، وربت على كتفه

- خير يا أحمد ، عايز تقول إيه ؟

- أنا...أنا عايز أتجوز

استلقى حتى استند بمؤخرة رأسه على ظهر الكنبة

= تتجوّز !....وماله يا أحمد ، عين العقل يا أبني ، شاور إنت بس على أى بنت من بنات العزبة وآني من بكره أجوّزهالك

- لا يابا ، أنا عايز أتجوّز هنية مرات الباشا

اعتدل الرجل جالساً ، وقد لمعت عيناه دهشةً واستغرابا

= هنية !...مرات سعادة الباشا !

- أيوه يابا ...هنية ، بحبها وبتحبني ، وعدتها خلصت من يومين

شرد الرجل بذهنه ، يفكر في منأى عن إبنه ، فزواج إبنه من أرملة الباشا يعني أول ما يعني ، الإستحواذ على ميراث الباشا ، أمواله وما خلّفه من أطيانٍ زراعية ، علاوة على سيادته للعزبة بأكملها ، يحبها وتحبه ؟ ، أين رأها ومتى ؟ ، التفت إلى إبنه قائلاً

= إنت شفتها فين يا أحمد ؟

أطرق أحمد برأسه خجلاً ، ثم ما لبث أن تمتم بكلماتٍ متقطعة

- من زمان يابا ، من أكتر من سنة

= طب أصبر يا أبني كام شهر لحد أهل العزبة ما ينسوا ويبطّلوا كلام

- ليه يابا ؟ ، هما الناس بيقولوا إيه ؟ ، وهما ما يعرفوش حاجة عننا ، وبعدين ده شرع الله ، انتهت العدة ومن حقها شرعاً تتجوّز .

= يا أبني الناس على لسانهم كلام مش ولا بد يعني؟

- كلام إيه يابا ؟

= بيقولوا الست حامل

أطرق أحمد ناظراً إلى الأرض هنيهة ، وهمهم قائلاً

- أيوه يابا ، هنية حامل ، واللي ف بطنها يبقى أبني

استدار الرجل حتى صار في مواجهته تماماً

= حامل منك! ، مين اللي حامل منك ؟

- هنية يابا

= يا نها مش فايت ، الناس بتتكلم عن أمها يا أحمد ، مش على هنية ، وبعدين قول لي بصراحة ومن غير لف ودوران ، إنت ليك دخل ف موت الباشا ؟ ، كت موتة غريبة ، وما دخلتشي عقلي

- عايز الصراحة يابا ، الباشا قبل ما يموت شافني مع هنية ، ما استحملشي وطب ساكت .

= وطي صوتك يا وله ، وإكفي ع الخبر ماجور .

العزبة تغلي كبركانٍ على وشك الإنفجار ، حاول الحاج حسن مقابلة أم السعد وفشل ، فَقد كانت بالطبع لها أسباباً وجيهة للرفض البات ، فبطنها قد انتفخت ، وعلى وشك أن تضع حملها .

علم الحاج عوضين بما ينتويه الحاج حسين من تزويج إبنه لأرملة الباشا ، وما يتبع هذه الزيجة من استيلاء على العزبة بكاملها

، فلم يكن بحاجة إلى تفكير عميق ، ليصل إلى ذلك الإستنتاج ، لسبب بسيط ، وهو إنه هو أيضاً ، فكر ملياً في تزويج إبنه سعيد لراوية ، طمعاً في الإستحواذ والسيطرة على العزبة بأكملها ، بعدما اتضح أن أرملة الباشا لم تحمل منه ، كما أن الأقاويل كلها تدور حول أم السعد وحملها سفاحاً ، ولكن كيف له أن يتأكد من هذه الأقاويل ، وكيف يتصدي لزواج إبن غريمه الحاج حسين من هنية أرملة الباشا ، خاصةً بعدما علم من إبنه سعيد ، أن هنية أرملة الباشا غارقةً في علاقة محرمة مع أحمد ومنذ أمدٍ بعيد .

لا سبيل أمامه سوى الأنتظار ، ولكن هل ينتظر حتى يستولي الحاج حسين على الغنيمة بمفرده ؟ ، وإن تصدى له ، فبأي حجةٍ يتصدى له وينازله ، وكيف لعائلته أن تقاتل عائلة الحاج حسين وهم الأكثر عدةً وعددا .

هداه تفكيره إلى التحالف مع الحاج حسنين كبير عائلة آل مغاوري ، ولكنه شخصيةً مسالمة لا تحبذ العنف ، فكيف يستميله إليه ، ويجتذبه إلى صفه ، استقر أخيراً على اللعب على وتر الفتنة ، وما يلوكه الناس من أقاويل .

ـ شوف يا حاج حسنين ، الكلام زاد عن الحد ، ومبقاش ينفع ينسكت عليه

= استهدى بالله يا حاج عوضين ، إن بعض الظن إثم

ـ طب ما نقطع الشك باليقين يا أبن عمي

= إزاي يعني ؟

- بسيطة يا حاج ، تروح إنت وتقابل أم السعد

= وهأروح بأي حجة يا عوضين ؟ ...وكمان هما ما عندهمشي راجل ، اللي يقدر يعمل كده الحاج حسين لأنه هو ناظر العزبة السنة دى ، أنا بقى هأروح بأي صفة ؟!

- لا يا حاج حسنين ، هو أحنا قلة يعنى واللا قلة يعني !...إحنا كبرات البلد برضه ، وكمان الحاج حسين باقي له ف النظارة أقل من شهر ، والدور عليك يا حاج

= ف دى عندك حق ، توكلنا على الله .

رفضت أم السعد مقابلته كما رفضت مقابلة الحاج حسين من قبل ، خوفاً من إفتضاح أمرها .

ازدادت الشكوك في قلبيهما ، وقررا الإتفاق مع الحاج حسين للبحث عن حل ، ووضع حد لتلك الشكوك والشائعات .

- إزاي يعني ؟

سألهما مرتاباً في نواياهما

= بالعافية ، نتأكد بالعافية يا حاج حسين

- بالعافية ؟ ...عايزنا نهجم على حريم يا حاج عوضين ، يا عيب الشوم يا رجالة !

= مش إحنا اللي هنهجم عليهم يا حاج ، حريمنا هما اللى هيدخلوا عليهم عنوة ، ونقطع الشك باليقين ، ونطفي النار القايدة ف العزبة

أطرق برهةً من الوقت ، وفكر ملياً

" إن لم تكن أم السعد حامل ، فسيعرفون حتماً ، أن هنية حاملاً " بادرهم متسائلا

- طب ولنفرض إن الست طلعت مش حامل ، وكلام الناس كله كدب ، هيبقى منظرنا إيه ؟

= فكّر شوية يا حاج حسين ، لو الست مفيهاش علّة ، رفضت تقابلك وتقابلنا ليه ؟ ، وليه محدش ف الناحية كلاتها لمحها مرة واحدة من أكتر من ست سبع أشهر ، أكيد فيها علّة وخايفة لتنكشف وتتفضح .

- طب لو طلعت حامل ، هنتصرف إزاي ؟

= ودي عايزة سؤال برضه يا حاج ! ، هنولع فيهم بجاز ونحرقهم ، ونتاويهم ، لا مين شاف ولا مين دري ، وننضف العزبة م الأنجاس دول .

- ليه نحرقهم كلهم ؟ ، هما البنات ذنبهم إيه ؟



= ذنبهم إيه ؟!...ديلهم نجس يا حسين ، قول بقي إنك بتدافع عنهم ، علشان تجوّز المحروس إبنك للست هنية ، وتكوّش ع العزبة لوحدك ، يكون ف علمك ده وكتاب الله مش ممكن يحصل أبداً

انتفض الرجل واقفاً وصاح فى غضبٍ عارم

- إنت بتهددني ف بيتي يا عوضين ، طب وكتاب الله لو أى مرة هوّبت ناحية السرايا لأكون كاسر رجلها.

انصرف الحاج عوضين وتبعه الحاج حسنين غاضبين بشدة

- واد يا أحمد

في ثوانٍ كان أحمد يقف أمام أبيه ، بينما مكثت أمه خلف الباب الموارب تتصنت

- إسمع يا أبنى وركز ف اللى هأقوله لك

- - معاك يابا ....إتفضل

- إنت متأكد يا واد إن اللي ف بطن مرات الباشا ده يبقي أبنك....يعني منك ؟

- - أه يابا متأكد

صمت الحاج حسين لبرهةٍ من الوقت ثم أردف

- طب بسرعة روح لعمامك وقول لهم إن أبا الحاج عايزكم دلوقتي في أمر مهم ....ياللا روح وكمان هات ولاد عمامك معاك .

انطلق أحمد كالبرق من أمام والده ، في طريقه إلى منازل أعمامه تنفيذاً لأمره .

على الجهة الأخرى جمعٌ كثير يتشاور في دوار الحاج عوضين ، الذى كان يجلس على أريكةٍ عريضة وبجواره الحاج حسنين ، بينما كان يجلس أمامهم في صحن الدوار بعض الرجال كبار السن ، ومن خلفهم الكثير من شبابهم واقفين كالأشجار المنتصبة ، وكلهم لهفة في إنتظار القرار الذى ستخذه كبارهم .

بعد طول نقاش إتفقوا على ضرورة التصدي لأطماع الحاج حسين وعائلته ، التخلص من عائلة الباشا عن بكرة أبيها ، كما قرروا أيضاً أخذ زمام المبادرة بمهاجمة السرايا ، وكان موعدهم الليلة .

الليل يبسط أذرعه على سماء العزبة ، في ليلةٍ غاب قمرها ، تحسباً لما هو في علم الغيب ، وإن كانت نذره تلوح في الأفق .

تحت جنح الظلام ثلاث نسوة يتسللن بخطى حثيثة إلى داخل السرايا ، عابرين أشجار الموز المنتصبة كأشباحٍ ليلية تهيمن على مساحات الحوض الغربي ، عبر الباب الجانبيٍ الموارب يدخلن ، يصعدن سلالم الدرج المؤدى إلى الشرفة الغربية ، ينسابن في هدوء إلى داخل البهو الكبير ، بينما بضعةٌ من شباب عائلة الحاج حسين ومعهم أحمد يقفون خارجه ، متأهبون لصد أي محاولة إقتحام للسرايا من شباب عائلتي الحاجين عوضين وحسنين .

النسوة يصعدن سلالم الدرج الداخلى المؤدى إلى غرفة نوم هنية ، يقتربن في حذر من بابها الموارب ، همهمات مختلطة تتجاوزه إلى أذانهن ، يتأكدن أن الأصوات تخص هنية وأمها

= أنا خايفة قوي ياما

+ ربنا يستر يا بنتي ، إحنا غلابة وملناش غيره

تصمت لبرهة ثم تستطرد وقد كست ملامح وجهها إبتسامةٌ باهتة

+ وبعدين ما الشباب ربنا يحميهم واقفين زنهار قدام الباب ، ومحدش ستجري يهوّب ناحية السرايا وهما موجودين

= أه ومعاهم سي أحمد كمان ، ربنا يحميهم يارب

النسوة المتربصن خارج الغرفة يقتحمنها فجأة ، ليتفاجئوا بالسيدتين الجالستين على حافة السرير قد إنتصبتا واقفتان وبطن كل واحدةٍ منهما تتقدمها .

أمسكت إحدى النسوة أم السعد من شعرها وجذبتها أرضاً وهى تصرخ فيها

- منين ده يازانية يا بنت الكلب ؟



بادرت هنية بالصراخ ، والسيدتان تحاولان الإمساك بها وإخراسها ، إلا إنها أفلتت منهما ، وأندفعت كالبرق خارج الغرفة وهما يلاحقانها .

رواية وأختها الصغرى يصعدن الدرج وهما يصرخان ، وفي إثرهما كان الشباب يتقدمهم أحمد يقتحمون البهو إثر سماعهم صراخ هنية . أمسكت راوية بإحدى السيدتين من طرف جلبابها الخلفي ، وجرتها إلى أسفل السلالم ، بينما فرت الأخرى إلى داخل الغرفة ، لحق بها الشباب وأمسكوا بها ، وبالسيدة التى تملكها الرعب فأحتمت وراء ظهر أم السعد ، ولكن أحد الشباب أمسك بطرحتها السوداء وبخصلات من شعرها وجذبها زحفاً إلى خارج الغرفة ، وأم السعد واجمةٌ مذهولة ، عيناها زائغتان لا تستقران على شئ .

ألقوا بالنسوة خارج بوابة القصر ، بعد أن أوسعوهن ضرباً بأقدامهم .

كبراء عائلتي عوضين وحسنين مازالوا جالسين في صحن الدوار ، إنتظاراً لعودة نسائهن بالخبر اليقين .

تجاوزن الباب تتقدمهن زوجة الحاج عوضين في حالةٍ يُرثى لها ، فجلبابها ممزق وشعرها حاسر.

دنت من زوجها وهمست في أذنه ببعض الكلمات ثم انهارت باكية .

هب عوضين واقفاً وصاح فيهم بحدةٍ وغضبٍ عارم



- الزانية وبنتها الزانية الأنجاس ولاد الكلب بيتحاموا ف عيلة الحاج حسين ، أحرقهم ونضفوا العزبة منهم .

إندفع الشباب وفى إثرهم الرجال ومن خلفهم فتيات ونساء العائلتان يحملن المشاعل ، مهرولون إلى حيت تقع السرايا على الجانب الآخر كان رجال عائلة الحاج حسين ومعهم بقية شبابهم يعدون عدتهم من بنادق وأسلحةٍ بيضاء بينما نسائهم تجهز المشاعل

إقتحم الشباب بوابة القصر ، وفتكوا ببعض الشباب المتواجدون داخله ، بينما لاذ البعض الآخر بالفرار طلباً للنجدة .

الشباب يصعدون الدرج تتقدمهم زوجة الحاج حسين حاسرةً شعرها ، يملؤها غلٌ ورغبةٌ عارمة في الإنتقام لشرفها المُهان ، وما إن كسروا الباب المغلق من الداخل ، صاحت فيهم

= أهي الزانية ...إقتلوها وأحرقوا ابن الزنا اللى ف بطنها النجسة .

تقدم أحدهم يحمل منجلاً في يده، وشراً في عينيه، وهوى به على بطنها فبقرها، تلاه آخر جز رقبتها بسكينٍ حاد .

إندفعت دماءها غزيرة ، ومختلطة بدماء جنينها ، فجثت زوجة الحاج حسين على ركبتيها ، وغمست كفيّها في الدم الغزير ، وراحت تمسحهما في جلبابها الممزق في نشوةٍ غريبة .

لفيفٌ آخرٍ من الشباب وفي إثرهم عوضين وحسنين ، يقتحمون غرفةً أخرى في الدور الأرضي ، ليجدوا بداخلها هنية

محتميةً بظهر أحمد ، الذى أشهر سلاحه مهدداً بقتل كل من يتجرأ ويتقدم نحوهما .

تسمر الشباب مكانهم حيث يقفون ، إلا أنِ الحاج عوضين تجرأ وهاجمه ، فما كان منه إلا أن أطلق رصاصةً أصابته في مقتل ، فأندفع إبنه سعيد ، وهوى على رأس أحمد ببلطةٍ في يده ، بينما كان الحاج حسنين قد أمسك بهنية الغائبة عن الوعي ، وشرع شابٌ آخر ببقر بطنها بسكينٍ حاد .

جلبةً ودوي طلقات نارية تعم الأرجاء ، فقد وصلت عائلة الحاج حسين برجالها وشبابها ونسائها، هاجموا كل من تجرأ وتعرّض لهم بضراوة، بينما كانت نساؤهم تشعل النار في كل ما يقع أمام أعينهن .

من بعيد استرعي انتباهي ألسنة نار تقتحم الأفق أمام ناظريَّ، ورجلٌ يهرول لاهثًا، استوقفته وسألته عماً يحدث هناك، التقط أنفاسه وبدأ يقص عليَّ ما حدث....

بينما كانت ألسنة اللهب قد اختفت، وابتعلت الأوراق الكثيفة لأشجار الموز سحب دخانها الكثيف .

محتوى الكتاب